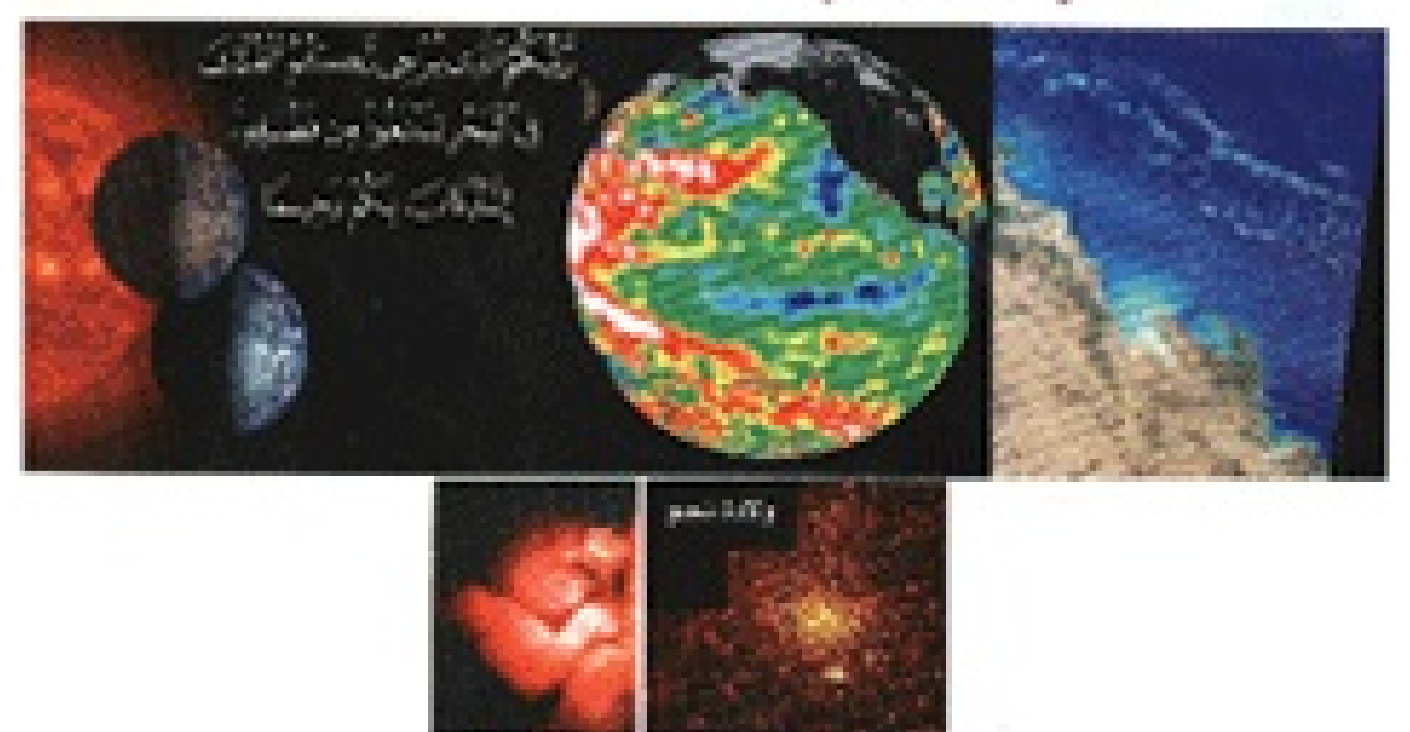
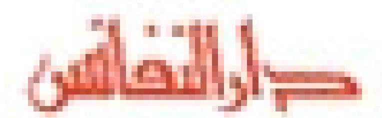
الإعجاز العلمي في القرآن

تأصيل فكري وتاريخ ومنهج

سامي أحمد الموصلي






بسم الله الرحمن الرحیم

الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)

کاتب:

سامی احمد الموصلی

نشرت فی الطباعهٔ:

دارالنفائس

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)

اشارة

نـام کتاب: الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی) نویسـنده: سامی احمـد الموصـلی موضوع: اعجاز علمی تاریـخ وفات مؤلف: معاصـر زبان: عربی تعداد جلد: ۱ ناشر: دارالنفائس مکان چاپ: بیروت سال چاپ: ۱۴۲۲ / ۲۰۰۱ نوبت چاپ: اوّل

المقدمة

المقدمـة حینما فکّرت بتألیف هـذا الکتاب کان فی ذهنی تساؤل کبیر یقول: لو أن محمـدا صـلّی اللّه علیه و سـلّم أرسل هذا الیوم فی هـذا العصـر، کیف کان سـیتحدّث للبشـریة المعاصـرة؟ و بأی أسـلوب و بأیّـة مضامین و بأیّة معجزة؟ و بصـیاغة أخری للتساؤل: لو أن القرآن الکریم أنزل هذا الیوم فی هذا العصـر، کیف سـیکون تحدّیه کمعجزة لهذا العصـر؟ و کیف سیتحدث للخلق کلهم بما یجعلهم یسلّمون له تسلیما بإعجازه المتناسب مع تطوّر البشریة علمیّا الیوم؟ إن هذا السؤال یبدو کبیرا فی أول وهلة، و لکن إذا ما تعمّقنا برسالة الإسلام، قرآنا و سنة، و کونها مرسلة إلی البشریة جمعاء حتی یوم القیامة، و بأن الإعجاز و المعجزة المطلوبة منها موجودة و متمثلة فی الفهم العلمی للقرآن، علی ضـوء جمیع المکتشـفات و النظریـات و القوانین العلمیـة المعاصـرة، بـل إن هـذه المعجزة العلمیـة مـا زالت مفتوحة علی المسـتقبل لکی تحتوی کل المستجدّات العلمیة علی مستوی جمیع العلوم، و فی کافة أنواع اختصاصاتها الکونیة و الذریة و البایولوجیـة ... الـخ. إذا ما تعمّقنا بهـذا الفهم للقرآن فسـنجد أن الجواب واضـح و یسـیر، بل و قد أشار إلیه القرآن نفسه حینما أکّد علی أنه سیظهر صدقه و حقیقته فی المسـتقبل بقوله: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت/ ۵۳] أی إن القرآن حق بما سـیبرهن علیه الزمن، و هذا ما حصل، و یحصل الیوم و سیحصل غدا، حینما نجد أن القرآن قد أکّد الحقائق العلمیة التی سـتظهر بعـد نزوله بآلاف السـنین، بحیث إذا قرأ العالم المعاصـر، المتسـلّح بأحـدث نظریات العلوم و قوانینها و اکتشافاتها، القرآن یجده قد أشار إلیها إشارات واضـحة، و بعضـها فی التفصیل و البیان بحیث لا یمکن صرفها إلی غیر هذه المفاهیم الجدیدة المکتشفة. إذن، فـالقرآن و معجزته العلمیـة التی یتحـدّی بهـا العـالم المعاصـر تشـیر إلی أن القرآن کـأنّه یتنزّل الیوم مواکبا لطبیعـة العصـر، بل و متجاوزا لإمکانیاته الحالیة و المسـتقبلیة فی هذا الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶ الجانب. فعظمة المعجزة القرآنیة هذه التی تحـدّثت لعرب الجاهلیـة فـأعجزتهم تقف الیوم للتحـدث للعقول الألکترونیـة، و لعلوم الفضاء و الفلک و الفیزیاء النوویـة و الکونیـة و للهندسة الوراثیة و الحیویة، بل و لکل العلوم و النظریات و القوانین بلغة تعجزهم بنفس قوة الإعجاز البلاغی للعرب الفصـحاء شـعراء و خطبـاء. إن عظمـة الرسالـة الإسـلامیة تکمن فی أن المعجزة التی جاء بها الرسول صـلّی اللّه علیه و سـلّم هی نفس کتابه الـذی تضـمّن شریعته و عقیـدته، و کتابه هو معجزته، و ما دام الرسول صـلّی اللّه علیه و سـلّم هو خاتم الأنبیاء و الرسل، و ما دام قد أرسل إلی الخلق کافة، من وجدوا فی عصره و من سیوجدون حتی القیامة، إذن یجب أن تکون له معجزة دائمة بدوام الرسالة لتدلّ کل عصر علی نبوّته و صـدق رسالته، فإذا کان المؤمنون السابقون قد آمنوا بالنّبی حینما رأوه و رأوا معجزاته، فکیف سـیؤمن به اللاحقون حتی یوم القیامة إذا لم تکن هناک معجزة حقیقیـة قائمـة تتحـدّی کل أحـد أن یأتی بمثلها؟ من هنا کان القرآن معجزة دائمة تتحدّی کل عصـر و کل زمن و کل جیل، و بما یتقنه و یتفنّن به ذلک العصـر و ذلک الجیل، و الیوم، و عصرنا عصر علوم و ثقافة و اکتشافات خارقة، لم یصل إلیهـا جیـل سـابق بتاریـخ البشـریة کله، یقف الإعجـاز العلمی للقرآن متحـدّیا کـل ذلک بما أشار إلیه و تحـدث عنه من ظواهر علمیة سبقت عصـره الـذی أنزل فیه أوّلاـ بکثیر، و من هنـا نری إسـلام کثیر من علمـاء الفلک و الفضاء و الفیزیاء و الکیمیاء و علوم الحیاة .. الخ، حینما یطّلعون علی آیات القرآن التی تخص علومهم، بل و تتجاوزها إلی مسـتقبل أرحب، حتی قام أحدهم بدراسة جمیع الکتب المقدسـة، علی ضوء آخر اکتشافـات العلوم و أحـدث القوانین العلمیـة، فسـقطت جمیعهـا، لتحریفهـا عبر الزمن، و بقی القرآن شـامخا

صادقا و دليلا و حجة على هؤلاء العلماء و غيرهم ممن يبحثون فى أسرار الكون و الطبيعة و الإنسان. لقد قال اللّه تعالى فى كتابه العزيز: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر/ ۹]، و نحن نجد اليوم صدق هذه الآية بلا نقاش أو جدال، فلم يزد فى القرآن أو ينقص منه حرف واحد بعد ألف و أربعمائة سنة على نزوله، و رغم أنه لم يجمع فى حياة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، بل جمع بعد وفاته، و مع ذلك فقد حفظه اللّه حفظا ليبقى حجّة و دليلا و هاديا على ساحة الزمن كله، أ لا يكفى أن تكون هذه الآية نفسها دليل صدقه و إعجازه؟ لقد قال هذا القول قبل ألف و أربعمائة سنة، و ها هو اليوم، كما هو منذ ذلك الزمن حتى الآن، رغم المحاولات العديدة لتحريفه و الزيادة و النقصان فيه. لقد قال تعالى فى قرآنه وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [النمل/ ۹۳]، و ها نحن اليوم الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷ نرى آيات اللّه فى حقائق و أسرار الكون و الحياة مما لم يره من سبقنا، بل و لم يخطر ببالهم أن يصل العلم البشرى إلى هذا المستوى المتقدّم كثيرا جدا مقارنة بما كان عليه علم البشر سابقا! أ فلا يصدق القرآن اليوم كصدقه فى الأمس، فيكون معجزة هذا العصر كما كان معجزة العصر العربى الأول فى زمن الرسالة؟ أ لم تعرف فعلا آيات اللّه اليوم بما لم يعرفه السابقون؟ أ ليس هذا بدليل على أن القرآن كأنما يتنزّل اليوم على عصرنا بلغة علمنا، و يتحدث إلينا بالبيّنة و البرهان، كما كان يتحدث للسابقين؟ إذن فلو أرسل الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم اليوم فستكون معجزته هى القرآن نفسه كما نجده اليوم، و كما نفهمه مصداقا لقول القرآن نفسه من أننا سنرى آيات اللّه فنعرفها و نعرف صدقه بها إعجازا من اللّه و حجة على الخلق أجمعين. فما أعظمه من كتاب، و ما أعظمها من معجزة لم يكن مثلها لنبى أو رسول غير خاتم الأنبياء و المرسلين، و هكذا يحق لأحد الكتّاب و المؤلفين أن يقول: «إن الكتاب الذى يحق له أن يحكم العالم لا بد أن يتّصف بأنه ليس بحاجة إلى تعديل أو إضافة لأن أحكامه يقينية، بمعنى أن كلّ علاقة يعقدها بينه و بين الحياة لا بدّ أن تكون علاقة تخضع كل تجارب الناس، و كل علاقاتهم بالحياة للفوز المبين المعقود على نواصى كلماته». لكلّ ذلك فمهما بالغ المبالغون فى وصف القرآن فإنهم لن يبلغوا حقه فى وصفه، أ ليس هو كلام اللّه، و اللّه ليس كمثله شىء، فكيف يجب أن يكون و هو صفة من صفات اللّه فى كلامه؟ أ لم يصفه الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم وصفا ما بعده مجال لمبالغ فى قول، و لا لمتحدّث فى خطاب حينما قال (كتاب اللّه تبارك و تعالى فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللّه، و من ابتغى الهدى فى غيره أضلّه اللّه، هو حبل اللّه المتين و نوره المبين و الذكر الحكيم و هو الصراط المستقيم، و هو الذى لا تزيغ فيه الأهواء و لا تلتبس فيه الألسنة و لا تتشعب معه الآراء، و لا يشبع منه العلماء و لا يملّه الأتقياء، و لا يخلق على كثرة الرّد، و لا تنقضى عجائبه، و هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً [الجن/ ۱] من علم علمه سبق، و من قال به صدق، و من حكم به عدل، و من عمل به أجر، و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم). فمهما حاولنا، بقصور عقلنا البشرى، أن نصل إلى نهاية إعجازه فى كل باب من أبواب الإعجاز العديدة فسنبقى فى حدود قول اللّه تعالى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء/ ۸۵]. فإذا كنّا عن فهم حقيقة العالم و الطبيعة و الكون و الحياة الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸ و الوجود عاجزين، و هم من مادة الحياة و الوجود نفسها التى نحن منها مخلوقون، فكيف سنستطيع أن نفهم صفة من صفات اللّه تعالى حق فهمها و هى كلامه و كتابه، و هما ليسا من مادة هذا الوجود و لا من طبيعة مادة الحياة و الكون الذين قتلناهم بحثا و تعمّقا، و استعملنا كل المختبرات و التلسكوبات و الميكروسكوبات، و صعدنا إلى أعماق الفضاء بأجهزتنا فضعنا فى مداه الواسع اللانهائى، و تعمقنا فى مفردات الذرة و جسيماتها الأولية حتى عجزت وسائلنا، على عظمتها، أن تقودنا إلى الحقيقة، فى حين أن القرآن، و بلغة و حروف البشر العادية نفسها، يصف لنا نهاية هذه النظريات الكونية و الذرّية، و يصف لنا الحقيقة واضحة بيّنة. إن خالق الكون هو الذى يتحدّث عن كونه، فهو الذى يعرف ما خلق و من خلق أ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك/ ۱۴] فإذا تحدّث فحديثه الصدق و الحق و العدل، و بذا يكون القرآن قد أجاب على كل الأسئلة التى طرحها العقل البشرى على نفسه منذ أعماق الحضارة الإنسانية و الفلسفة اليونانية حتى آخر التساؤلات التى يقف العلم المعاصر على عظمته مبهوتا بها. لقد تساءل الإنسان (بكيف) عن كثير من مفردات الطبيعة و ظواهرها، و أجاب القرآن عنها جوابا نهائيا لا لبس

فیه و لا ضیاع، و التقی العلم المعاصر فی إجابته مع ما قاله القرآن منذ ألف و أربعمائة سنة لقاء مباشرا. کما تساءل الإنسان عن ماهیّة الأشیاء و حقیقتها، و ما هو الوهم، و ما هو الصدق فیها، بعیدا عن هلوسات العقل و خرافاته، فأجاب القرآن عنها منذ ألف و أربعمائة سنة، و إذا بالعلم یلتقی مع آخر اکتشافاته، و بعد جهد کلّف الإنسان کثیرا من حیاته و ماله و صحته مع ما قاله القرآن. و کذلک بحث الإنسان عن نفس الإنسان و أعماقها و مشاعرها، و ألّف کتبا و وضع علوما لکل ذلک، و مع أنه ما زال خاطئا و عاد خاسرا حیث تبخّرت حقائق النفس المفترضة لدیه لم یجده البحث شیئا، و لو عاد للقرآن لوجد الجواب الشافی عن کل أسئلته و تساؤلاته التی جعلته یضیع حیاته و عمره سدی فی هذا المجال، فی حین أن حکمة اللّه من خلقه کانت وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ [الذاریات/ ۵۶]، فلو عبده بما علّمه لأعطاه اللّه علم ما لم یعلم، فهو قد کلّفه بالعبادة و أعطاه علمها، فلو أدّی ما کلّف به لأعطاه اللّه حقیقة کل شیء من خلال هذه العبادة، و لعلم أن علم اللّه أکبر من خلق اللّه، و لا یحیط بعلمه شیء و هو یحیط بکل شیء، و هکذا نرجع إلی ما قاله اللّه تعالی واصفا علمه بکلامه و کلامه بعلمه وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷]. فلیکفّ الإنسان عن أن یکون أکثر شیء جدلا، و یسلّم أمره إلی اللّه فسیجد ربه بانتظاره حیث الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹ یعطیه علما من علمه حتی یبطل مفعول السؤال فی نفسه، فلا یسأل بعد أن علم، و لا یتجاهل بعد أن أسلم، و یری حقیقة ما قاله أحد الباحثین فی القرآن: «فی العالم کله کتاب واحد قدّم للناس جمیعا حقائق العلم قبل أن تثبت فی معارک العلاقات بین الوعی البشری و بین مادة الکون، ذلکم هو القرآن»، و عند ذلک سیعجب کما عجب عقلاء العالم «إن عقلاء العالم لیعجبون کیف یکون فی عالم الناس القرآن و لا یجعلونه قبلتهم جمیعا لفهم الحیاة و تفسیرها و معرفة الحقیقة و العمل بها». إن هدف هذا الکتاب هو الجواب علی هذه الأسئلة من خلال المحاولات التی تمّت فی مؤلفات العلماء لتحقیق هذا الجواب، فهل استطاعوا الجواب حقّا، ففهموا القرآن کمعجزة علمیة معاصرة و کما یجب أن تکون حجة اللّه علی خلقه فی هذا العصر؟ و کأنما الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم أرسل هذا الیوم به، و کأنما القرآن ینزل الآن بیننا و لا زال بکرا لم تتعمّق به العلوم کما یجب، رغم کل محاولات القدماء و مبالغاتهم العقلیة و اللغویة التی وقفوا عندها، و قد جاء عصر المختبرات العلمیة الفضائیة و النوویة لکی یقول کلمته فی هذا المجال، فهل وصل إلی الجواب الحق! و إلی الفهم الحق لکلام اللّه و قرآنه الذی بیّنه اللّه بیانا واضحا مفصّلا لکل شیء، و فیه علم کل شیء؟. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۱

المقدمة الفکریة ضرورة المعجزة بین مفهوم شمولیة الرسالة و خاتم النبیین

المقدمة الفکریة ضرورة المعجزة بین مفهوم شمولیة الرسالة و خاتم النبیین حینما نراجع بعض خصائص نبوّة سیدنا محمد صلّی اللّه علیه و سلّم الذی أظهره اللّه علی الدین کلّه و أکّد اللّه سبحانه و تعالی فی قرآنه الحکیم أنه أکمل له الدین الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً [المائدة/ ۳]، نجد أن هناک تفرّدا و تمیزا لهذه النبوة لم یکن مثلها لأحد من الأنبیاء السابقین علی کثرتهم، هذا التفرد و التمیز یظهران من خلال خصوصیتین اثنتین أکدهما اللّه سبحانه و تعالی فی قرآنه المجید، و تحدّث عنهما الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم فی عدة أحادیث. أما الخصوصیة الأولی فهی فی کونه صلّی اللّه علیه و سلّم أرسل إلی الناس کافة وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا کَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ [سبأ/ ۲۸]، و یقول الرسول الکریم فی حدیثه «۱» (أعطیت خمسا لم یعطهن نبی قبلی، نصرت بالرعب مسیرة شهر، و جعلت لی الأرض مسجدا و طهورا، فأیما رجل من أمتی أدرکته الصلاة فلیصلّ، و أحلّت لی الغنائم و لم تحل لنبیّ قبلی، و بعثت إلی الناس کافة، و أعطیت الشفاعة)، و معنی هذه الخصوصیة أن الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم، دون غیره من الأنبیاء، أرسل إلی الخلق کلهم، سواء کانوا إنسا أو جنّا، و سواء کانوا عربا أم عجما، فی حین کان الرسول حین یرسل قبله یرسل إلی قومه فقط. و الخصوصیة الثانیة من خصائص نبوته هی کونه خاتم النبیین، فلا نبوّة و لا نبی، بعده، قال تعالی ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ وَ لکِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ [الأحزاب/ ۴۰]، و یقول الرسول الکریم فی

حديثه «۲» (مثلى و مثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها و أحسنها إلا موضع لبنة، فكان كل من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هـذه اللبنة، فأنا موضع هذه اللبنة، ختم بى الأنبياء)، و يقول فى حديث آخر «۳» (أنه سيكون من أمتى كذابون ثلاثون كلّهم يزعـــم (______________________________ ۱) الشـفا بتعريـف حقـوق المصطفى- القاضى عياض، ج ۱، ص ۳۲۹. (۲) مختصـر تفسير ابن كثير- محمّد على الصابونى، ج ۳، ص ۱۰۰. (۳) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور- السيوطى، ج ۳، ص ۱۰۰. الأعجـاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۲ أنه نبى، و أنا خاتم النبيين، لا نبى بعـدى). إذن، فمن معانى شـمولية الرسالة الإسلامية للخلق كلهم منذ بعث الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم حتى قيام الساعة أن تكون هذه الرسالة هى خاتمـة الرسالات، و بالتـالى يجب أن تكون كاملـة لا تحتاج إلى نبى آخر يرسل ليسـتدرك على رسولنا الكريم ما فاته، كما هى حال جميع الرسل السابقين الذين كان النبى اللاحق يستدرك على النبى السابق فينسخ من شريعته ما ينسخ بأمر اللّه، كما أنّ من معانى خـاتم النبيين أن يكون مرسـلا و داعيـا جميع الخلق، حتى بعـد وفـاته، إلى طريق اللّه، و أن يكون دليـل صـدق نبوّته قائم على الأجيال اللاحقـة حتى قيام الساعـة، و لا يكون هـذا إلا بأن تكون له معجزة قائمـة دائمة تبرهن على صدقه و صدق رسالته إلى هذه الأجيال، و تتحـدى، كمعجزة، كل العصور و الأزمان حتى قيام الساعـة. لقـد دعا الرسول الكريم فى حياته جميع الخلق الـذين عاصروه فى حياته إلى الإيمـان باللّه، و آمن به من آمن من الإنس و الجن كما هو مـذكور فى القرآن وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ [الأحقاف/ ۲۹]. فقد أدى الأمانة كما أمره اللّه بها، و توفى الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و ارتد من العرب من ارتدّ، ثم بعد حروب الردة رجع إلى الإسـلام من رجع، و كانت معجزة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم هى القرآن، و كانت تتحدّى العالم كله إنسا و جنا منذ نزولها و سـتبقى حتى قيام الساعة، تقوم بعملية التحدى لأن يؤتى بمثلها، و هكذا فإن الرسول الكريم بصـفته خاتم الأنبياء، جاء بمعجزة قائمة دائمة مستمرة فى تحدّيها، و لا تنتهى عجائبها حتى يرث اللّه الأرض و من عليهـا. إذن، فالقرآن العظيم هو المعجزة الدائمـة للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو الـذى عليه أن يتعامل مع مختلف الأجيال الإنسانيـة و مختلف الحضـارات اللاحقـة لعصـر النبوّة و مختلف المسـتجدات التى تحصـل للإنسان و الكائنات عموما، و مهما توصّل الإنسـان فى أبحـاثه و علومه و اكتشافـاته فعلى القرآن أن يبقى معجزا فى كـل هـذه الأحوال و الأماكن و الموضوعات، فكيف يكون ذلك الإعجاز و القرآن كلمات معـدودة لمعانى فسّرها المفسـرون القـدامى و أشـبعوها بحثا؟ كيف يكون ذلك الإعجاز و قد ذهبت الفصاحـة و البلاغـة مع أهلها فى ذلك الزمان، و ذهب التحدى القائم عليها، و الذى كان أساس الإعجاز فى نزول القرآن أوّلا عليهم؟ كيف سـيكون الإعجاز و هو دليل صدق نبوة النبى، و دليل كون القرآن من اللّه معا إذا كان العصر، مثل عصرنا، عصر معرفة و علوم و تكنولوجيـا و اكتشافـات فى الفضـاء و الـذرة و الحيـاة؟ أ ليست المعجزة و كل معجزات الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۳ الأنبياء السابقين كانت كـذلك، عليها أن تتحدى كل عصـر بما يتقنه ذلك العصـر و يتفنن فيه و يحس بعظمته و كبريائه من خلاله؟ أ لم يتحدّ موسـى عليه السـلام سـحرة فرعون بعصاه لأن العصـر كان عصـر سـحر و سـحرة؟ أ لم يتحدّ عيسى عليه السلام طب اليونان و أطباء عصـره حينما جاءهم بشـفاء و إحياء لم يكن و لن يكون مثله أبدا؟ و أخيرا، أ لم يتحدّ نبينا عليه الصـلاة و السلام شعراء و خطباء قريش و العرب جميعـا حينما جاء ببلاغـة القرآن بنفس لغتهم، و نفس حروفها و كلماتها و لكن بإعجاز جعل أشـعر الشـعراء و أخطب الخطبـاء إذا سـمعه بهت و أعلن عجزه و آمن بـأنه من عنـد اللّه! لقـد أدى القرآن العظيم وظيفته خير أداء فى تعجيز كل العرب الـذين حضـروه و عاصـروه عن أن يأتوا بسورة من مثله، و هم أهل اللغـة و الفصاحة و البلاغة التى لم يلحقهم بها أحدا! و على القرآن وظيفة أخرى الآن لكى لا يتم الحـديث عن أن المعجزة انتهت بانتهـاء عصـر من خاطبتهم بلغتها، و تحـدّتهم آنـذاك و أصـبحت الآن خبرا يروى كبـاقى معجزات الأنبياء مع أقوامهم، هـذه الوظيفـة تأتيه من كونه جاء معجزا لكل من الإنس و الجن، و لكل زمان و مكان، لأنه لا نبى بعـد خاتم الأنبياء، و لا معجزة و لا وحى و لا رسالـة، و عليه هو، باعتباره معجزة خاتم الأنبياء الـذى أرسل للخلق كافة، أن يقوم بهذه المهمة و أن يكون حجّة اللّه البالغة على العالمين فى كل عصر و حين و حتى قيام الساعة! لقد مضت أجيال و أجيال، و جاءت و

تجیء أجیال أخر تطالب بحجتها و برسولها و معجزتها وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِیها نَذِیرٌ [فاطر/ ۲۴] و إلا فما ذنبهم أن یکونوا متأخرین عن عصر الرسل و ختمت النبوة قبلهم؟ أ یعذب اللّه الناس یوم القیامة قبل قیام الحجة علیهم؟ حاشا للّه. من کل ما تقدم، نجد أن القرآن هو المعجزة الخالدة التی تبقی عاملة عملها کما نزلت فی حیاة الرسول الکریم صلّی اللّه علیه و سلّم، و بنفس القوّة المتحدّیة لکل عصر، و یفخر بما یقول أحد الباحثین «۱»: «إذا قدر أن یبحث العلم الأدیان عن طریق بحث ظاهرة النبوّة، فسیجد أن العقبة فی سبیله هی أن معجزاتها قد مرّت و انقضت، فهو لا یجد سبیلا إلی بحث شیء منها إلا معجزة واحدة لرسول واحد علی دین واحد، إلا القرآن معجزة الإسلام علی ید محمد بن عبد اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ... لقد ذهبت المعجزات کلها

(____ ۱) الإیمان و العلم الحدیث، ص ۱۴۰.

الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۴ و بقی، و تغیرت الکتب و حرّفت و لم یتغیر هو و لم یتحرّف، فلو قدر للإنسانیة أن تفحص الأدیان بعقلیة علمیة لما وجدت غیر الإسلام دینا یثبت للفحص العلمی، إذ لیس غیر الإسلام دینا بقیت معجزته إلی الیوم و تبقی إلی ما شاء اللّه، لتکون موضوع بحث و امتحان له یهتدی البشر بفحصها إلی اللّه، و لعلموا عن طریقها أن الإسلام هو دین اللّه فاطر الفطرة و خالق الناس». إذن، فالقرآن هو معجزة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم، و هو بنفس الوقت کتاب رسالته ذاتها «لقد جعل کتابه عین معجزته، و معجزته عین کتابه لیکون حفظ الدین و حفظ معجزته أمرا واحدا سواء، و لتدوم حجة اللّه علی الناس». علی أنه یجب أن یتضح إعجاز القرآن لکل إنسان لتلزمه حجة اللّه إن هو أبی الإسلام، لذا فإن معجزة القرآن لیست من تلک الناحیة التی یتوقف تقدیرها و التسلیم بها علی معرفة لغة لا یتیسر معرفتها لکل أحد، و تلک الناحیة الإعجازیة هی الناحیة العلمیة فی القرآن ... أی أن الحقیقة العلمیة التی لم تعرفها البشریة إلا فی القرن التاسع عشر أو العشرین مثلا، و التی ذکرها القرآن لا بد أن تقوم عند کل ذی عقل دلیلا محسوسا علی أن خالق الحقیقة هو منزّل القرآن ... إن موقف القرآن، کمعجزة الیوم لعصرنا، هو نفس موقفه کمعجزة فی عصر النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و لا یتوقف کمعجزة إلا إذا استطاع العصر أن یتجاوزه فیما جاء به من صور الإعجاز العدیدة، عند ذلک تتوقف حجة اللّه علی العالمین، فإما أن یرسل رسولا- آخر، و هو قد قال إنه لیس هناک رسول بعد خاتم النبیین، أو یرسل معجزة تتحدّی من لا یؤمن بها، و هو ما لم یحصل. إذن، فالقرآن کان و ما زال و سیبقی حجة اللّه علی العالمین، و لکن علینا نحن أن نعرف مواضع و مواقع إعجازه لعصرنا لکی تستمر الرسالة و کأنها جاءت الیوم. لننظر إلی منطق علماء الإسلام السابقین فی طریقه فهمهم لنبوة النبی و معجزة القرآن، و کیف کانت تعمل عندهم، و نقارنها بمنطق علماء الیوم فی نظرتهم و فهمهم لنبوّة النبی و معجزة القرآن؟ یقول الباقلانی فی إعجاز القرآن إن نبوّة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معجزتها القرآن «۱»: «الذی یوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوّة نبینا علیه الصلاة و السلام بنیت علی هذه المعجزة»، و یصف هذه المعجزة بقوله «فأما دلالة القرآن فهی عن معجزة عامة عمّت الثقلین، و بقیت بقاء العصرین، و لزوم الحجة بها فی أول وقت ورودها إلی یوم القیامة علی حد واحد». و لکن هل یمکن إدراک الإعجاز بسهولة حتی و إن

(____ ۱) إعجاز القرآن- الباقلانی، ص ۳۱.

الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۵ کان إعجازا لغویا فقط کما کانوا یظهرون؟ یقول الباقلانی «۱»: «یجب أن تعلم أن من حکم المعجزات إذا ظهرت علی الأنبیاء أن یدّعوا فیها أنها من دلالاتهم و آیاتهم، لأنه لا یصح بعثة النبی من غیر أن یؤتی دلالة و یؤیّد بآیة، لأن النبی لا- یتمیز من الکاذب بصورته و لا بقول نفسه و لا بشیء آخر سوی البرهان الذی یظهر علیه، فیستدل به علی صدقه، فإذا ذکر لهم أن هذه آیتی و کانوا عاجزین عنها صحّ له به ما ادّعاه، و لو کانوا غیر عاجزین عنها لم یصح أن یکون برهانا له، و لیس یکون معجزا إلا بأن یتحداهم إلی أن یأتوا بمثله، فإذا تحدّاهم و بان عجزهم صار ذلک معجزا، و إنما احتیج من باب القرآن إلی التحدی لأن من الناس من لا- یعرف کونه معجزا، فإنما یعرف إعجازه بطریق، لأن الکلام المعجز لا- یتمیز من غیره بحروفه و صوته، و إنما یحتاج إلی علم و طریق یتوصل به إلی معرفة کونه معجزا، فإن کان لا یعرف بعضهم إعجازه فیجب أن یعرف حتی

يمكنه أن يستدل به». إذن، فالسابقون كانوا يحتاجون لمعرفة الإعجاز إلى دراسة و علم، رغم أن الإعجاز كان عندهم لغويا أكثر منه علميا و نظريات علمية، فكيف الحال عندنا فى الإعجاز العلمي؟ مما تقدم، نرى أن الأقدمين لم يكونوا يعرفون الإعجاز بداهة بعد أن مضى عصر النبوة و بدأت الأبحاث فى علوم القرآن تنتشر، و دخل كثير من غير العرب فى الإسلام، و هم لهم ثقافات و علوم ليست للعرب، كما أنّ الفصاحة و البلاغة دخلها ضعف كثير، من هنا كان يجب أن تقوم المؤلفات الكبيرة لمعرفة إعجاز القرآن، فالذى لا يعرف إعجاز القرآن لا يصدّق أنه من اللّه، و قد يعتبره كتابا من الكتب لأنه مؤلّف من حروف و كلمات و موضوع بين دفتى ورقة، أما من يعرف إعجازه فإن إيمانه يتكامل مع القرآن على أنه كلام اللّه و معجزة رسول اللّه، و أنّ فيه اليقين الحق الذى لا يقين غيره، و من هنا أيضا تعددت أوجه إعجاز القرآن حتى عند القدماء أنفسهم الذين كان التحدى الأول لهم بلغته و بلاغته و معانيه، و لكن من أعجب العجب فى هذا القرآن العظيم، الذى جاء من ربّ العالمين لهداية الناس أجمعين، أنه يدلّل على صدقه بنفسه فى كل عصر و حين، و يقول إنه سيفعل ذلك حتى يذعن له كل عقل سليم، و كل عالم و حكيم، بل و يزيد على ذلك بأن يعطى و عودا مستقبلية لما يحققه من إعجاز عبر كل زمن و عصر، بما يحمله ذلك العصر و الزمن من

(١) إعجاز القرآن- الباقلانى، ص ٢٥٨.

الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ١۶ اختصاص و تقدم فى مجاله الذى يبدع فيه و يفخر، يقول ابن تيمية «١»: «لما كان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا إلى جميع الثقلين جنّهم و إنسهم، عربهم و عجمهم، و هو خاتم الأنبياء لا نبى بعده، كان من نعمة اللّه على عباده، و من تمام حجته على خلقه، أن تكون آيات نبوّته و براهين رسالته معلومة لكل الخلق الذين بعث إليهم، و قد يكون عند هؤلاء من الآيات و البراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء، و كان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية و الأفقية ما يبين به أن القرآن حق، كما قال تعالى قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت/ ۵٢، ۵٣]. أخبر سبحانه أنه سيرى العباد الآيات فى أنفسهم و فى الآفاق حتى يتبين لهم أن القرآن حق، فإن الضمير عائد إليه، إذ هو الذى تقدم ذكره كما قال قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ [فصلت/ ۵٢]. و رغم أن التحدى الذى جاء به القرآن أن نزل إلى حدود أن طلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله، و قد تكون السورة ثلاث آيات فقط، مثل إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ [الكوثر/ ١]، و رغم أنه كانت دواعى العرب و غيرهم على المعارضة تامة، رغم كل هذا فقد انتفت المعارضة، و علم عجز جميع الأمم عن معارضته، و هذا برهان آخر يعلم به صدق هذا الخبر الذى هو بنفس الوقت آية لنبوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم». أما تعدد وجوه إعجازه عند الأقدمين فيظهر بأشكال مختلفة و متعدّدة و متنوعة، و كل شكل له وجه إعجازى قائم بنفسه، و لكى لا نطيل نشير إلى هذه إشارة عابرة و إلا فكتب الإعجاز كثيرة، من ذلك ما ذكره ابن تيمية من أن «٢» «كونه معجزا يعلم بأدلّة متعدّدة، و الإعجاز فيه من وجوه متعدّدة، فتنوّعت دلائل إعجازه، و تنوّعت وجوه إعجازه، و كل وجه من الوجوه، فهو دليل إعجازه و هذه جمل لبسطها تفصيل طويل، و لهذا قال تعالى: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵٠) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت/ ۵٠، ۵١] فهو كاف فى الدّعوة و البيان و هو كاف فى الحجج و البرهان». إذن، فمجرد إنزال القرآن على الرسول هو معجزة، لأن ما فى القرآن من مضامين

(١) تفسير ابن تيمية- ج ٢، ص ١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١۴٢. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ١٧ تكفى للرد على كل الحجج و الاعتراضات، كما أنها تكفى لتدلّ و توضح و تبرهن على حقيقة الدعوة و أنها من اللّه، و تعطى لكل عصر دليلا يناسبه، و تتحدث لكل قوم باللغة التى يفهمونها علما و فقها و حجة و بيانا. و إذا ما جئنا إلى البحوث المعاصرة و العلماء المحدثين نجد أن قوّة الدليل لديهم فى الإعجاز القرآنى، و بما يناسب العصر الحاضر، هى بنفس القوّة التى كانت لدى القدماء السابقين من العلماء، و رغم اختلاف طبيعة دليل كل

منهم، یقول شعراوی «۱»: «أما الإسلام فلأنه دین خاتم و شامل للبشریهٔ کلها، فلا یمکن أن تکون معجزته حسّیهٔ تنتهی کسابقاتها، فخص اللّه رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم بمعجزهٔ تماثل قدر رسالته علو زمان و علو مکان، بحیث أن أی إنسان یؤمن علی مرّ الزمن بمحمد یستطیع أن یقول أنا أؤمن بمحمد و هذه معجزته، و تابع عیسی لا یستطیع أن یقولها لأن التاریخ هو الذی حدثنا عن معجزهٔ عیسی». و لما کان طابع العصر، الذی نعیش فیه الیوم، هو طابع البحوث و الاکتشافات العلمیهٔ المتعددهٔ فی کافهٔ جوانب الکون و الحیاهٔ، و لما کان کبریاء العالم و قوته الیوم یقوم أساسا علی مقدار التقدم الذی توصلت إلیه البشریهٔ فی هذا الجانب، کان علی القرآن، باعتباره معجزهٔ لکل زمان و مکان، أن یظهر إعجازه فی هذا الجانب لیکشف للعالم تقدّمه و سبقه فی الإشارهٔ و التوضیح إلی الحقائق العلمیهٔ التی توصّل إلیها العلم الیوم، بعد أن کان هو قد ذکرها قبل أربعهٔ عشر قرنا، و من هذا کان ما یسمی بالإعجاز العلمی للقرآن کلغهٔ معاصرهٔ یتحدث بها القرآن إلی الإنسانیهٔ جمعاء، لیدلل علی صدقه و صدق نبوّهٔ رسولنا الکریم من خلاله، و لیتحدث للإنسانیهٔ الیوم بلغتها لیقیم الحجّهٔ علیها بنفس قوهٔ الحجهٔ التی أقامها علی العرب أیام نزوله الأولی، یقول الدکتور محمد حسن هیتو «۲»: «فإننا حین نتکلّم عن إعجاز القرآن لا نرید بذلک إقناع العرب فحسب، و إنما نرید إقناع العالم بأسره، من عربی و غیره، فإن هذا القرآن أنزل للبشر جمیعا و تحدّی به البشر جمیعا فی کل زمان و مکان، و لذلک یجب علینا أن نخاطب البشر بما تستوعبه عقولهم، و أن الجوانب العلمیهٔ الیوم من أهمّ ما یستهوی عقول الناس فی الشرق و الغرب، فإذا ما رأوا ما یدل علی الإعجاز فی کتاب اللّه فی جانب العلوم التی یتقنونها، هان علیهم الإیمان و التسلیم. إذن فالذی دفع العلماء و المفکرین المسلمین للبحث و التحقیق فی جوانب الإعجاز العلمی فی القرآن هو الواقع الذی یعیش فیه

(۱) القرآن معجزهٔ و منهج- محمّد متولی شعراوی، ج ۲، ص ۲۷۹. (۲) المعجزهٔ القرآنیهٔ- د. محمّد حسن هیتو، ص ۱۴۸. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۸

الناس، و الذی صارت فیه العلوم أساس الحیاهٔ و الحضارهٔ الإنسانیهٔ». إن همّ البشریهٔ الیوم هو همّ علمی، فقد انکشف الغطاء للعقل الإنسانی فی هذا العصر ما لم یتکشف له منه فی أیّ عصر مضی من تاریخ الإنسانیهٔ، و إحساس الإنسان بموقعه المتمیز فی الکون و الحیاهٔ جاءه الیوم من خلال الاکتشافات العلمیهٔ، و توظیف النظریهٔ العلمیهٔ فی الصناعات و التکنولوجیا، التی استطاع من خلالها أن یصل إلی القمر فیمشی علیه متبخترا، کما استطاع أن یسبر أعماق الذرهٔ و الکون و المجرات و السدم مستخدما لحسابه السنین الضوئیهٔ، کما استطاع أن یسبر أعماق الذرهٔ لیصل إلی أخطر قانون علمی اکتشف حتی الآن و هو تحول الطاقهٔ إلی مادهٔ، و المادهٔ إلی طاقهٔ، و فی علوم الحیاهٔ بحث أسرار الخلیهٔ الحیهٔ حتی تعرّف علی اللغهٔ الکیمیائیهٔ فی أعماق الخلیهٔ، و بدأ یدرس الهندسهٔ الحیویهٔ و الوراثیهٔ و یتحکم فی صفات الجنس البشری. لقد أصبح العالم کمادهٔ فی ید العالم المعاصر کالعجینهٔ فی ید الخباز یدوّرها و یمطّها کما یشاء، هکذا العالم الذی تتلاعب به قوانین الکتلهٔ و الطاقهٔ و السرعهٔ حتی حطمته و کشفت مجهولاته التی کانت فی السابق تحکمها الأساطیر و الخرافات و المعقولات الساذجهٔ و الفجّهٔ، بل إن الإنسان أخذ یتحدّث عن تاریخ العالم و الکون بدایهٔ و نهایهٔ، و یحسب دوران الفلک و الفضاء و انتهاءه إلی أمده أو عمره الکیمیاوی و الفیزیاوی، و قد غابت المستحیلات العقلیهٔ التی کانت تحجم الفکر عند حدود ضیقهٔ، و هکذا طار الإنسان فی الفضاء یلاحق النجوم و الکواکب و المجرات، و یطلق الأقمار الصناعیهٔ و المرکبات الفضائیهٔ إلی أعماق الکون علّه أن یجد حافّهٔ الکون لیبحث وراءه عمّا یکون هناک، و تعمّق فی الذرهٔ تحلیلا حتی بلغ اللامنظور، و تبخّرت تسمیات المادهٔ التی تحوّلت إلی طاقهٔ شعاعیهٔ فحسب، مما قضی علی مفهوم المادهٔ و الجسمیهٔ بالمعانی القدیمهٔ لیدخل بدلها مفهوم الضوء و الطاقهٔ. إذن، حتی اللغهٔ العلمیهٔ و مصطلحاتها الیوم أصبحت تختلف اختلافا کبیرا جدا، بل و متناقضا مع مفردات اللغهٔ القدیمهٔ و مفاهیمها، فکیف استطاع القرآن، فی هذا العصر الذی کل ما فیه علم فی علم، أن یفرض إعجازه علمیا علی هذا العصر ذی اللغهٔ المختلفهٔ کلیا؟ بل و کیف یمکن للقرآن أن یدخل مجال هذه العلوم لیتجاوزها و هو أصلا کتاب هدایهٔ و اعتبار و لیس کتاب علم و اختبار، کما أجمع علیه السلف و الخلف؟ یقول عبد اللّه خلاف عن ذلک فی کتابه «علم أصول الفقه» «۱»: «القرآن

(____) علـم أصـول الفقـه- عبـد اللّه خلاف، ص ۲۹. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۹ أنزله اللّه علی رسوله لیکون حجة له و دستورا للناس، لیس من مقاصده الأصلیة أن یقرّر نظریات علمیّة فی خلق السموات و الأرض و خلق الإنسان و حرکات الکواکب و غیرها من الکائنات، و لکنه فی مقام الاستدلال علی وجود اللّه و وحدانیته و تذکیر الناس بآلائه و نعمه، و نحو هذا فی الأغراض، جاء بآیات نفهم منها سننا کونیة و نوامیس طبیعیة کشف العلم الحدیث، فی کل عصر، براهینها، و دل علی أن الآیات التی لفتت إلیها من عند اللّه، لأن الناس ما کان لهم بها من علم و ما وصلوا إلی حقائقها، و إنما کان استدلالهم بظواهرها، فلما کشف البحث العلمی سنّة کونیة، و ظهر أنّ آیة فی القرآن أشارت إلی هذه السنة قام برهان جدید علی أن القرآن من عند اللّه، و إلی هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد اللّه سبحانه بقوله فی سورة فصلت: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ کَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقاقٍ بَعِیدٍ (۵۲) سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ [فصلت/ ۵۲، ۵۳]». و هنا إعجاز آخر لم یطرأ علی البال. فإذا کان القرآن هو کتاب هدایة و اعتبار قد أشار فی مضامینه عرضا إلی سنن الکون، فجاءت کل اکتشافات العالم المعاصر تؤیدها و تدعمها، فکیف لو اتجه حقا لأن یکون کتاب علم و اختبار؟ لا شک أنه سیکون أکبر من أن یسعه العقل البشری، و لأعطی الیقین و الحقیقة فی کل شیء مباشرة دونما حاجة إلی توسطات التجارب و وسائل الاحتمالات و الإحصاءات، و سیکون هو مقیاس الحقائق ذاتها لأنه أعرف بها منها بنفسها، لما ذا؟ لأن قائل القرآن هو خالق الأکوان مجال العلم و المعرفة. یقول شعراوی «۱»: «إن القرآن کلام اللّه، و الکون خلق اللّه، و حقائق الکون الموجودة فیه و التی خلقها اللّه لا بد أن تنسجم مع کلام اللّه فلا یکون هناک تضارب، فإن حصل ما ظاهره التضارب فإما إنک فهمت حقیقة قرآنیة و هی لیست حقیقة قرآنیة، و لیس هذا المراد من الحقیقة القرآنیة، و إما أنک أتیت بشیء لیس حقیقة علمیة و قلت هو حقیقة علمیة، و لکن إذا تأکدنا أن هذه حقیقة قرآنیة- و هذا هو الفرق- و هذه حقیقة علمیة، فلا بد أن یلتقیا لأن قائل القرآن هو خالق الکون». بل إن بعض المفسرین و الباحثین یوحّدون فی المعنی بین الکون المنظور، و هو الوجود، و الکون المقروء، و هو القرآن، و یعتبرون أن الکون المنظور هو أدق تفسیر للکون المقروء و لیس العکس، یقول د. محسن عبد الحمید، متحدثا عن

(____) هذا هو الإسلام- محمّد متولی شعراوی، ص ۲۰۴. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۲۰ مدرسة الأفغانی و محمد عبده و رشید رضا فی التفسیر العلمی، أنه یجب «۱» «الانطلاق من المبدأ القائل کلما ازددنا معرفة بما فی الوجود من الأسرار و القوانین ازددنا علما بما فی کتاب اللّه، ذلک لأن الکون المنظور أعظم و أدق تفسیر للکون المقروء، فلا بد إذن من الاستفادة من العلوم المتنوّعة، و الثقافات الإنسانیة المتعددة الحدیثة فی تفسیر القرآن الکریم فی داخل الضوابط الأصولیة المعروفة بین علماء الإسلام التی تضبط الاتجاه لحرکة تفسیر القرآن فی کل عصر». و لکن أ لیس فی البحث عن الحقائق العلمیة فی القرآن، أو تفسیر القرآن تفسیرا علمیا معاصرا ما یقود إلی ربط العقیدة بمفاهیم العلوم و حقائقها، التی قد تتغیر مع الزمن و مع الاکتشافات الجدیدة، مما یجعل القول فی القرآن خاطئا علمیا علی التفسیر القدیم مما یضطرّنا لأن نغیر التفسیر مع کل حقیقة جدیدة للعلوم؟ و بذلک نکون کمن قال فی القرآن برأیه، و هو أخطر التفاسیر و أسوؤها؟ لا شک أن هذه المقولة حقیقیة عبّر بها بعض الکتاب و المؤلفین، کالعقاد و بنت الشاطئ و أمین الخولی، عن ملاحظاتهم علی محاولات التفسیر القسریة التی تمت فی بعض الأقطار العربیة، و بعد أن یؤکد العقاد فی کتابه عن الفلسفة القرآنیة من أن العلوم الإنسانیة «۲» «تتجدد مع الزمن علی سنّة التقدّم فلا تزال بین نقص یتم و غامض یتّضح و موزّع یتجمّع، و خطأ یقترب من الصواب، و تخمین یترقّی إلی یقین، و لا یندر فی القواعد العلیمیة أن تتقوّض بعد رسوخ أو تتزعزع بعد ثبوت، و یستأنف الباحثون تجاربهم فیها بعد أن حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدّة قرون، فلا یطلب من العقیدة أن تطابق مسائل العلم کلما ظهرت مسألة منها لجیل من أجیال البشر، و لا یطلب من معتقدیها أن یستخرجوا من کتبهم تفصیلات تلک العلوم ... الخ»، لذا یستنتج العقاد من ذلک «۳» «کلا لا

حاجة بالقرآن لمثل هذا الادعاء لأنه کتاب عقیدة یخاطب الضمیر، و خیر ما یطلب من کتاب العقیدة فی مجال العلم أن یحث علی التفکیر، و لا ـ یتضمن حکما من الأحکام یشل حرکة العقل فی تفکیره أو یحول بینه و بین الاستزادة من العلوم ما استطاع و حیثما استطاع». و لکن ألا ـ یقود هذا إلی تعجیز القرآن أمام العلم، أو علی الأقل إثبات اختلافه معه و هو من أخطر قضایا الاختلاف بین الدین و العلم، یعود العقاد قائلا «۴»: «فالقرآن

(__________ ۱) تطور تفسیر القرآن- د. محسن عبد الحمید، ص ۲۲۱. (۲) الفلسفة القرآنیة- عباس محمود العقاد، ص ۱۸. (۳) المصدر السابق، ص ۱۹. (۴) المصدر السابق، ص ۲۰.

الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۲۱ الکریم یطابق العلوم، أو یوافق العلوم الطبیعیة بهذا المعنی الذی تستقیم به العقیدة و لا تتعرّض للنقائض و الأظانین کلما تبدلت القواعد العلمیّة، أو تتابعت الکشوف بجدید ینقض القدیم أو یقین یبطل التخمین، و فضیلة الإسلام الکبری أنه یفتح للمسلمین أبواب المعرفة و یحثهم علی ولوجها و التقدم فیها، و قبول کل مستحدث من العلوم علی تقدم الزمن، و تجدد أدوات الکشف و وسائل التعلیم، و لیست فضیلته الکبری أن یقعدهم عن الطلب و ینهاهم عن التوسع فی البحث و النظر لأنهم یعتقدون أنهم حاصلون علی جمیع العلوم». لا شک أن تخوّف العقاد، و من معه، من التفسیر العلمی کان بسبب التفسیرات العلمیة التی ظهرت فی زمنهم، و التی کانت فعلا ـ منحرفة جدا و غیر مستندة علی أساس علمی منهجی، حتی أن الشیخ طنطاوی جوهری کان یؤمن بأن القرآن لا یفسّر إلا بالعلم الحدیث، فکتب تفسیره و مزج فیه الآیات القرآنیة بالعجائب الکونیة، و یؤکد أن القرآن سر العلوم. لقد لخص الدکتور عفت محمد الشرقاوی، فی کتابه «الفکر الدینی فی مواجهة العصر»، حجج الذین یعارضون التفسیر العلمی بالنقاط التالیة «۱»: ۱) إن الفهم الدقیق للألفاظ یحتم علینا فهمها فی حدود الاستعمال الذی نزلت فیه، و هذا یحول بیننا و بین التوسع فی جعلها تدل علی معان لم تعرف بها وقت نزول القرآن. ۲) یجب أن نقف بعبارات القرآن عند ما فهمه العرب الخلّص، و لا نتجاوز ما ألفوه فی علومهم و أدرکوه من معارفهم، لأننا نعتقد أن البلاغة هی مراعاة مقتضی الحال. ۳) إن مهمة القرآن دینیة اعتقادیة و لیست علمیة. ۴) ینبغی أن لا نقحم النظریات العلمیة علی القرآن الکریم، أو نعتبر أن القرآن الکریم مطالب بموافقتها کلما تغیرت من زمن إلی زمن، و من تفکیر إلی تفکیر. ۵) إن إدخال التفسیرات العلمیّة علی الإشارات القرآنیة، و بالصورة التی جری علیها بعض الکتاب و العلماء، لا بد أن یفضی، عما قریب أو بعید، إلی الصراع بین الدین و العلم. ۶) التفسیر العلمی یحمل أصحابه علی تأویل القرآن تأویلا متکلفا یتنافی مع الإعجاز و لا یسیغه الذوق السلیم.

(__________ ۱) الفکر الدینی فی مواجهة العصر- د. عفت محمّد شرقاوی، ص ۴۲۵. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۲۲ ۷) التفسیر العلمی بدعة حمقاء و دفاع فاسد عن إعجاز القرآن من کل وجه. لا شک أن هذه الملاحظات و الحجج قد أثّرت علی مسیرة التفسیر العلمی للقرآن، فبعد أن ذهب الانبهار الأول فی العلوم عبثا، کانت تؤخذ بلا مناقشة و لا دراسة بحیث أن تکون نظریة علمیة افتراضیة، و أن تکون قاعدة أو قانونا علمیا حقیقیا، أصبح الیوم للتفسیر العلمی، بل و الإعجاز العلمی، مدرسة متشعبة متعمّقة منهجیة وضعت لنفسها الضوابط و الشروط لهذا التفسیر قبل ممارسته، بل و إنها رجعت إلی بعض الآراء الواردة عن القدامی من علماء و فقهاء لکی تبنی رأیها علی أرضیة ثابتة من القناعة، و لکی تبقی للقرآن دوره الإعجازی المستمر حتی فی هذا العصر، فما دام هو صالحا لکل زمان و مکان فیجب إذا أن یقول کلمته فی کل جدید من العلوم و المعارف الحقیقیة، لکی یستدل من ذلک علی أنّه کلام اللّه، و أنه معجزة رسول اللّه، و إلی جمیع العالمین فی کل وقت و حین. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۲۳

البعد التاریخی الإعجاز العلمی من کتب الإعجاز حتی التفسیر العصری

البعد التاریخی الإعجاز العلمی من کتب الإعجاز حتی التفسیر العصری لو حاولنا أن نرجع فی التاریخ إلی الوراء إلی زمن النبوّة و ما

بعدها، للتعرف على كيفية تصور القرآن عندهم لوجدنا ما يعيننا على التأصيل الفكرى للإعجاز العلمى للقرآن، و أنه كانت هناك بدايات لتفسير القرآن علميّا و ضمن مفردات كل عصر، و ما وصل إليه من تطور هذه العلوم آنذاك، ففى الحديث النبوى عن على بن أبى طالب، كرم اللّه وجهه، ورد هذا الحديث «۱» قال: (أما إنى قد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول اللّه؟ قال: كتاب اللّه، فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللّه، و من ابتغى الهدى فى غيره أضلّه اللّه، و هو حبل اللّه المتين، و هو الذكر الحكيم، و هو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، و لا تلتبس به الألسنة، و لا يشبع منه العلماء، و لا يخلق على كثرة الرّدّ، و لا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ [الجن/ ۱، ۲] من قال به صدق، و من عمل به أجر، و من حكم به عدل، و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ...) ... لعل هذا أقدم أثر لحديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن القرآن، فهو لا يشبع منه العلماء و لا تنقضى عجائبه ... و يروى أيضا عن على بن أبى طالب فى وصفه للقرآن أنه قال «۲»: «القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق، لا تفنى عجائبه و لا تنقضى غرائبه و لا تكشف الظلمات إلا به، و هو آمر زاجر و صامت ناطق و حجّة اللّه على خلقه، أنزله اللّه نورا لا تطفأ مصابيحه، و سراجا لا يخبو توقّده، و بحرا لا يدرك قعره، جعله اللّه ريّا للعلماء و ربيعا لقلوب الفقهاء و محاجّ لطرق الصلحاء و دواء ليس بعده داء، و هو كتاب اللّه بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه، و بيت لا تهدم أركانه و عزّ لا تهدم أعوانه».

(______________________________ ۱) التاج الجامع للأصول- منصور على ناصف، ج ۴ ص ۷. (۲) تفسير مفردات القرآن- سميح عاطف الزين، ص ۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۴ و لقد كان هذا التصوّر سائدا عند الصحابة و التابعين، لذا فإن الإمام الغزالى ينقل فى إحياء علوم الدين عن بعض العلماء «۱» «أن القرآن يحوى سبعة و سبعين ألف علم، و مائتى علم، إذ كل كلمة علم»، ثم يروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال: «من أراد علم الأولين و الآخرين فليتدبّر القرآن»، ثم يقول بعد ذلك: «و بالجملة، فالعلوم كلها داخلة فى أفعال اللّه عزّ و جل و صفاته، و فى القرآن شرح ذاته و أفعاله و صفاته، و هذه العلوم لا نهاية لها، و فى القرآن إشارة إلى مجامعها. ثم يزيد فى ذلك فيقول: بل كل ما أشكل فهمه على النظّار و اختلفت فيه الخلائق فى النظريات و المعقولات فى القرآن إليه رمز و دلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها، فتفكر فى القرآن و التمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين و الآخرين». أما السيوطى «۲» فيعتبر احتواءه على علوم و معارف لم يجمعها كتاب من الكتب، و لا أحاط بعلمها أحد فى كلمات قليلة، و أحرف معدودة، أول وجه من وجوه إعجاز القرآن، و يروى أحاديث و آثار كثيرة فى هذا الصدد، منها ما رواه البيهقى عن الحسن قال: أنزل اللّه مائة كتاب و أربعة كتب أودع علومها أربعة منها التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة فى الفرقان. و يروى عن ابن مجاهد أنه قال: ما شىء فى العالم إلا و هو فى كتاب اللّه عز و جل. و يروى عن ابن أبى الفضل المرسى قوله: جمع القرآن علوم الأولين و الآخرين بحيث لم يحط بها علما إلا واهبها و المتكلم بها، ثم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خلا ما استأثر به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة و أعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة و ابن مسعود و ابن عباس، حتى قال لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب اللّه. ثم يستعرض السيوطى جميع العلوم النابعة من القرآن، فيجمع كل العلوم الموجودة فى عصره و يصل إلى القول «۳»: «و قد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل، مثل الطب و الجدل و الهيئة و الهندسة و الجبر و المقابلة و النجامة و غير ذلك»، و ينقل عن الراغب قوله «إن اللّه تعالى كما جعل نبوءة النبيين بنبينا و مولانا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم مختتمة، و شرائعهم بشرعته من وجه منتسخة و من وجه متمّمة مكملة جعل كتابه المنزل عليه متضمنا لثمرة كتبه التى أولها «۴» أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [البقرة/ ۵] و قوله

(______________________________ ۱) أصول التفسير و قواعده- خالد عبد الرحمن العك، ص ۲۲۰. (۲) معترك الأقران فى إعجاز القرآن- السيوطى- ج ۱ ص ۱۲. (۳) المصدر السابق، ص ۱۷. (۴) المصدر السابق، ص ۱۹. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۵ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً* فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ [البينة/ ۲، ۳]، و جعل من

معجزة هـذا الکتاب أنه مع قلة الحجم متضـمن للمعنی الجم بحیث تقصـر الألباب البشـریة عن إحصائه و الآلات الدنیویة عن استیفائه، کما نبّه علیه بقوله وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷]». و أخیرا یروی السیوطی قول القاضـی أبی بکر بن العربی فی قانون التأویل: علوم القرآن خمسون علما، و أربعمائة علم، و سـبعة آلاف علم، و سبعون ألف علم، علی عدد کلم القرآن مضروبة فی أربعة، إذ لکل کلمة ظهر و بطن و حد و مطلع، و هذا مطلق دون اعتبار ترکیب و ما بینهما من روابط، و هذا مما لا یحصـی و لا یعلمه إلا اللّه. و یروی السـیوطی حدیثا عن أبی هریرة أنه قال: قال رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلّم: (إن اللّه لـو أغفـل شـیئا لأغفـل الـذرة و الخردلـة و البعوضـة). و ممن تـابع مفردات التفسـیر العلمی الـدکتور محسن عبد الحمیـد، حیث یرجع بدایاته إلی الإمام الغزالی «۱» فی کتاب جواهر القرآن، الـذی دعا فیه إلی أن هـذه العلوم المعروفة لیست أوائلها (أصولها) بخارجـة عن القرآن، لأن جمیعها مغترفـة من بحار معرفة اللّه تعالی. فالعلماء بهذه العلوم هم الذین یعرفون الأسـرار و السـنن الکامنـة وراء الآیات الکونیـة فی القرآن الکریم، و التی تمثل بحار أفعال اللّه تعالی فی الوجود. و یری الدکتور عبد الحمید أن الغزالی لا یعتقـد بوجود هذه العلوم جمیعها بتفاصـیلها فی القرآن، و إنما کان یعتقد أن موازینها و مفاتیحها هی الموجودة فیه، و لعل أکثر من تعامـل بمفردات العلـوم من تفاسیر القرآن هو الفخر الرازی فی تفسـیره الکـبیر الـذی آمن بمقولـة الغزالی و أکـثر من اسـتخدامها فی تفسـیره. إلا أن الدکتور عبد الحمید، فی دراسـته عن تفسیر الرازی، یقول عنه «۲» «إنه لم یـذکر أن فی القرآن کـل العلوم و المعارف الإنسانیـة بالفعـل، بل إنه مشـی علی أساس أن القرآن یجلب نظرنا إلی القوانین المتنوعـة المنشورة فی الکون، و لن نسـتطیع أن نفهمه حق الفهم إن لم نطّلع علی العلوم و المعارف، إذ أن فی ضوئها نفهم کثیرا من أسـرار القرآن» ... إذن فالقـدامی من العلماء و الباحثین، و من الصـحابة و التابعین کانوا یعتقدون أن کل العلوم فی القرآن، سواء عرفوا هذه العلوم التی کانت فی عصرهم أو لم یعرفوها، و أن فیه علم الأولین و الآخرین، و لمعرفتنا بحـدود علومهم فی ذلـک الزمـان و اختلاط بعضـها ببعض فإننا لا نسـتغرب منهم ذلک، فأین کتـاب اللّه من کتب (________________________________ ۱) تطور تفسیر القرآن- د. محسن عبـد الحمید، ص ۲۲۵. (۲) المصـدر السابق نفسه. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۲۶ البشر؟ و أین علم اللّه من علم البشـر؟ فالأساس الـذی اعتمـدوه فی أحادیثهم عن القرآن، و ما اسـتخرجوه و اسـتنبطوه منه یعود إلی هذا الیقین و الإیمان بصـدقه قبل البرهنة علیه، و ذلک لأنه من اللّه و من علم اللّه و من کلام اللّه، فخالق الکون و الخلق أدری بما خلق أ لا یَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ [الملک/ ۱۴] و لعـل خیر ما یستشـهدون به علی جمیع ما یـذکروه من علوم القرآن أنه هو نفسه قال: وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُـدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷]. فمن یؤمن بالقرآن یؤمن بهـذه الآیة، و من یؤمن بهـذه الآیـة فلیبالغ ما شاء، فلن یصل إلی حـدود علم اللّه، لأن علم اللّه مطلق و جمیع المبالغات المفهومة و غیر المفهومة هی نسبیة لعقل الإنسان المحدود، و لا شک أن المعترضـین و المحتجین علی تفسـیر القرآن علمیا هم ناس مؤمنون أیضا و لا یختلفون عن أن علم اللّه هو فوق البشـر، و أن کلاـم اللّه المعبر عن علمه فی القرآن هو أبعـد من أن یحیـط به عقـل، إلاـ أن الاختلاـف بینهم و بین المؤیـدین للتفسـیر العلمی یکمن حول المناسـبة و الالتقاء الحقیقی بین کل آیة و کل علم، فهل هذه الآیة قصد منها کذا، و تدل علی کـذا حقیقـة علمیـة، أم أنهـا لاـ تـدل علی ذلـک! و هل القرآن فیه ما یشـیر إلی أبواب و مبادئ العلوم فی کـذا آیـة، أم أن هـذه الآیة تفسیرها أسباب النزول و المعانی المحددة و المشخصة فیها، کما فسّرها الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم أو بعض الصحابة و التابعین؟ هنا مکمن الخلاف، و هذه مسألة قادت إلی سؤال کبیر طرحه العقاد علی نفسه فیقول «۱» «هل معنی ذلک أن الکتب المقدسة لا تفهم إلا کما فهمها المخاطبون بها لأول مرة؟ أو معناه أنها تفهم فی کل عصـر حسب النظریات العلمیة التی انتهی إلیها أبناؤه؟ و رغم أن العقاد من المعارضـین للتفسیر العلمی للقرآن إلا أنه حینما یجابه هذا السؤال یقول بأنه لا محل للخلاف فی أن الإنسان العصری مطالب بفهم کتبه المقدسـة، و فهم ما توجبه علی ضـمیره من الفرائض و الشـعائر و الواجبات، و الفهم المطلوب من المکلف المخاطب یقتضـی أن المسـلم مأمور فی القرآن بالتفکیر و التأمل و التـدبّر و الاسـتقلال بـذلک عن الآباء و الأجـداد، و أخبار الزمن القـدیم و أئمة الدین، و

ليس الخطاب مقصورا على العرب الأميين، و لاـ هو مقصور على أبناء القرن العشرين، و لكنه عام مطلق لكل عصر و كل زمان، إذ ليس من المعقول أن يفكر الإنسان على نسق واحد فى جميع العصور. و مع هذا فالعقاد يؤكد أن التفكير (____۱) الفكر الدينى فى مواجهة العصر- د. عفت محمّد شرقاوى، ص ۴۲۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۷ العصرى شىء و إقرار النظريات العلمية المتجددة شىء آخر». و نفس السؤال يطرحه الأستاذ محمد الصادق عرجون فى كتابه «نحو منهج لتفسير القرآن»، مع العلم أنه يعارض معارضة شديدة لما وقع من تفسيرات علمية للقرآن، يقول «۱»: «إذا كان أسلافنا من أعلام العلماء و حكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم و لجج المعارف، و اقتحموا حصون الأفكار فى أزمانهم، و لم يتركوا منها مشرعا إلا و ردوه، و اتخذوا من كافة معارفهم و أفكارهم معينا لفهم كتاب اللّه فهما يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبين هدايته و إقامة محبته، فما موقفنا نحن من عصرنا و معارفه و وسائله و أفكاره و مذاهبه؟ هل نقف من آيات اللّه عند مبلغ ما وصل إليه أسلافنا فى أعصرهم، و هو نهاية احترام العقول فى بيئاتهم و أزمانهم و مجتمعهم؟ أو نتقدم فى شجاعة كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا، و نغوص فى بحار معارفه بعقولنا التى ربّاها القرآن الحكيم و حديثه و براعة أسلوبه و لطف مدخله و دقة تصويره، و رائع تناوله لقضايا الحياة و الكون مع عنايته بتثبيت قواعد الإيمان فى قلوب دارسيه من المؤمنين». و رغم معارضته للتفسيرات العلمية التى وقعت للقرآن، نراه يجيب بضرورة ذلك و لكن بشروط هى أن لا نخضع القرآن لنظريات علمية لاـ تزال فى مهبّ التجارب، و قد تعصف بها فتصبح من قبل الأساطير، كما فعل بعض المتحمسين و بعض المخدوعين ببريق العلم التجريبى، و أن نحذر أشد الحذر من الشطحات القرمطية التى تقصد إلى تحريف آيات اللّه عن مواضعها، و يخلص إلى القول «۲» «و النظر فى تفسير الآيات الكونية يجب أن يقصد أولا إلى تبيين هداية القرآن تبيينا علميا، لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية التجريبية هى تفسير الآيات القرآنية و معانيها التى قصدها القرآن الكريم، و لكن على أساس أن القرآن الكريم لا يصادم علما ثبت بالبرهان القطعى ثبوتا لا يحتمل الارتياب و الشكوك، و الراسخون فى العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية فى حقائق الكون و خواطر الطبيعة إيمانا بجلال اللّه و عظمة الخلاق العليم» ... إن جميع المعارضين لتفسير القرآن علميا، تنصب ملاحظاتهم على ممارسات بعض المفسرين و انحرافاتهم فيها، و لم أجد من يعترض مبدئيا أو فكريا أو يعطى قانونا عاما يبرّر به سبب رفضه للاستفادة من العلوم و المعارف الحديثة فى تفسير القرآن. فالدكتورة عائشة عبد الرحمن، حينما تتحدث عن سلبيات التفسير العلمى (____، ۱) نحو منهج لتفسير القرآن- محمّد الصادق عرجون، ص ۶۱. (۲) المصدر السابق، ص ۶۳. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۸ تضع أمامها تفسيرات مصطفى محمود المبتسرة و التى لا تصمد كثيرا أمام النقد، حتى كتب أكثر من واحد كتابا كاملا فى الرد عليه، منهم الدكتور عبد المتعال الجبرى فى كتاب «شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصرية للقرآن الكريم»، أما كتاب الدكتورة عائشة «القرآن و التفسير العصرى» فهى تؤكد فيه أننا نتورط، من هذا المنهج فى التفسير، إلى المزلق الخطر يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان و ضمائرهم، فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب و التشريح و الرياضيات و الفلك و أسرار البيولوجيا و الإلكترون و الذرة ليس صالحا لزماننا، و لا جديرا بأن تسيغه عقليتنا العلمية و يقبله منطقنا العصرى. و هكذا تصل إلى القول بأن مثل هؤلاء الذين يلحون على التفسير العصرى للقرآن يغرون أبناءنا بأن يرفضوا القرآن كما فهمه الصحابة فى عصر البعث و مدرسة النبوة، ليفهموه فى تفسير عصر من بدع هذا الزمان. أما الدكتور عبد المتعال فإنه يفترض على المفسر، قبل أن يدخل فى مجال التفسير، ضوابط عدة منها دراسة العلوم الكونية و الاجتماعية، لأنها كما يقول تزيدنا يقينا بنسب القرآن إلى عالم الغيب و الشهادة الحكيم العليم، و يعتقد أن حقائق العلوم المنوعة التى سبق القرآن بتبيانها و لم تكن موجودة عند نزول القرآن، تزيدنا يقينا بأن القرآن من عند اللّه، إذ هى تؤكد لنا علم اللّه بالغيبيات و هيمنته على المخلوقات أ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك/ ۱۴] إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [القمر/ ۴۹] و هى برأيه ظلال من المعرفة تساعدنا على تصور عظمة اللّه فى كتابه المسطور، و أنه على النحو الذى تجد عظمته فى كتابه

المنشور کتاب الوجود، فنقف أمامه سبحانه خاشعین مسلمین مؤمنین قانتین. و یستنتج الدکتور من ذلک ضابطا أو شرطا للتعامل معها من خلال قوله «۱» «و أبحاثنا العلمیة- معشر البشر- ینعکس علیها قصور مدارکنا و قدراتنا، و من ثم فهی أقل من أن نفهم فی ضوئها کتاب اللّه، و إنما الصواب و المنطقی أن نفهمها فی ضوء کتاب اللّه، فإن الکامل هو الذی یحکم علی الناقص»، إلا أن الکاتب، و رغم کون کتابه محصورا بشطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العصریة، یطرح حکما قاسیا حینما یؤکد علی «۲» «إن الإلحاح علی صوغ المفاهیم الإسلامیة و نصوص الشریعة

(۱) شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العصریة للقرآن الکریم- د. عبد المتعال الجبری، ص ۲۳. (۲) المصدر السابق، ص ۱۲. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۲۹ فی قوالب النظریات العلمیة المعاصرة، له خطره علی الإسلام ذاته فی المدی البعید لحرکة الحرب ضد الإسلام»، و یضرب مثلا علی ذلک العلاقة التی قامت بین المسیحیة و العلم حینما حاولت أن تدخل شروح الإنجیل کدراسات فی الطبیعة و الفلک و الریاضة و الطب و شتی العلوم، و درست هذه بقوانینها علی أنها وحی مقدس، فلما سقطت هذه العلوم بالتطور سقطت المسیحیة معها، و کذلک الحال مع الدیانة الزرادشتیة عند ما وضع علماء الدین و مدارسهم، التی کانت تهیمن علی الثقافة، ما لیس من الدین من علوم الفلک و الطبیعة و غیرها، فلما جاءت الفلسفات الیونانیة و السوریانیة سقطت الدیانة الزرادشتیة مع علومها، و کذلک بعض الأدیان الأخری. ثم یطرح الکاتب سؤالا خطرا أکثر «۱» «هل تشجیع المستعمر لهذا النمط من التفاسیر أولا ... ثم انسیاق المخلصین فی هذا التیار دون سوء قصد ثانیا، یسلمنا إلی المأساة التی تحطمت المسیحیة علی صخرتها؟ إنها محاولات- لا شک- خیر منها عدمها و أولی ألا تسمی تفسیرا للقرآن، و مع ذلک فلن تنال من الإسلام شیئا إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر/ ۹]»، و کم سبقت فی کیده محاولات فباءت بالفشل: کناطح صخرة یوما لیوهنها* لم یضرها و أوهی قرنه الوعل إذن، فالمسألة أخطر من أن نمرّ علیها مرور الکرام، حیث دخل الاستعمار فیها بشکل غیر مباشر، و لو عدنا قلیلا إلی قصة تفسیر القرآن عبر التاریخ، و ما دخل علیها من انحرافات سنجد أن هذا الانحراف فی التفسیر العلمی- إذا صح الادعاء به- یکون لیس جدیدا علی محاولات تفسیر القرآن بأشکال و أسالیب مختلفة، فما ذکره الشیخ خالد عبد الرحمن العک فی کتابه «أصول التفسیر و قواعده» عن الاتجاهات المنحرفة فی التفسیر عبر التاریخ قوله «۲» «إن مما لا شک فیه أن إخضاع تفسیر القرآن الکریم لمیول شخصیة، و مذاهب ذات مفاهیم مغالیة، فتح علی المسلمین باب شرّ خطیر، و لج منه أعداء الإسلام للدّس فیه و تشویه صورته و إفساد عقائده، کما أنه دلف منه أصحاب البدع إلی ترویج بدعهم متسترین بآیات اللّه تعالی، کما منی التفسیر بأصحاب المیول المختلفة و النزعات المنحرفة حین وضعوا أقوالا فی التفسیر نسبوها إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أو إلی بعض أصحابه زورا و بهتانا ...».

(۱) شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العلمیة للقرآن الکریم- د. عبد المتعال الجبری، ص ۱۳. (۲) أصول التفسیر و قواعده- خالد عبد الرحمن العک، ص ۲۲۷- ۲۲۸. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۰ إذن، فالانحرافات التی دخلت علی تفسیرات القرآن کثیرة و متنوعة، و لکن کل هذا ما کان لیضر القرآن شیئا، فأخطاء التفسیر لا تقدح فی القرآن، و إنما بالمفسرین أنفسهم، فهم الذین أخطئوا، قصدا أو بلا قصد. و یرجع الشیخ خالد العک عوامل هذا الانحراف إلی ثلاثة عوامل: أولها: فساد نوایا المفسرین لتحقیق غایات نکرة أو مشبوهة، و ثانیها: أن یعتقد المفسر معنی من المعانی ثم یرید أن یحمل ألفاظ القرآن الکریم علی ذلک المعنی الذی یمیل إلیه و یعتقده، و ثالثها: أن یفسر القرآن بمجرد ما یسوغ أن یریده بکلامه ممن کان من الناطقین بلغة العرب، و ذلک بدون نظر إلی غایة المتکلم بالقرآن و هو اللّه تعالی، و إلی المنزّل علیه، و هو رسول اللّه، و المخاطب به و هم الناس جمیعا. و یظهر انحراف التفسیر فی العامل الأول بسوء النیة، و الثانی فی حمل الألفاظ القرآنیة علی المعنی الذی یمیل إلیه، و یعتقده من غیر نظر إلی ما تحمله الألفاظ من المعانی الواضحة و من الدلالة و البیان، و العامل الثالث إثبات المعنی الذی یراه المفسر، من غیر نظر إلی ما یصلح للمتکلم بالقرآن، و هو اللّه تعالی و

المخاطب به و سیاق الکلام. إن صور الخطأ فی العامل الثانی یظهر من خلال کون المعنی الذی یریده المفسر صوابا، غیر أن لفظ القرآن لا یدل علیه و لا یراد منه، کتفاسیر بعض الصوفیة و الوعاظ الذین یفسرون القرآن بمعان صحیحة فی ذاتها لکنها غیر مرادة فی النص و إن کان المعنی الظاهر لا ینافیها، و قد تظهر صورة الخطأ بأن یکون المعنی الذی یریده المفسر صحیحا لکن ظاهر النص لا یحتمله، کتفاسیر بعض الصوفیة الذین یفسرون القرآن بمعان إشاریة صحیحة فی حد ذاتها، و لکنهم یقولون إن المعانی الظاهریة للآیة غیر مرادة، و هو أقرب ما یکون إلی تفسیر الباطنیة، و قد تظهر صور الانحراف بأن یکون المعنی الذی یریده المفسر خطأ، و هو مع هذا یحمل علیه لفظ القرآن مع أنه لا یدل علیه و لا یراد منه. و قد تظهر هذه الصور بأن یکون المعنی الذی یرید المفسر نفیه أو إثباته خطأ بیّنا، و هو مع هذا یسلب لفظ القرآن ما یدل علیه و یراد به و یحمله علی ذلک الخطأ تعمدا، و هذه الصورة تنطبق علی أهل البدع و المذاهب الباطلة من الغلاة و المتعصبین. أما صور الانحراف، التی تظهر فی العامل الثالث، فتظهر من خلال أن یکون اللفظ محتملا للمعنی الذی ذکره المفسّر لغة، و لکنه غیر مراد، و ذلک کاللفظ الذی یطلق فی اللغة علی معنیین أو أکثر و المراد منهما واحد بعینه حسب السیاق، فیأتی المفسّر فیحمله علی معنی آخر من معانیه غیر المعنی المراد. أو قد یظهر بأن یکون الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۱ اللفظ موضوعا لمعنی بعینه و لکنه غیر مراد فی الآیة، و إنما المراد معنی آخر غیر ما وضع له اللفظ بقرینة السیاق مثلا، فیخطئ المفسّر فی تعیین المراد لأنه اکتفی بظاهر اللغة فیفسر اللفظ علی معناه الوضعی. إذن، هذه هی الاحتمالات و الانحرافات التی کشف عنها تاریخ تفسیر القرآن فی الماضی، و یمکن من خلالها معرفة کثیر من الأخطاء التی وقع بها المفسرون فی السابق لعدم تقیدهم بشروط التفسیر الموضوعة له، و لأن السبب الأساسی الذی کان یحرّکهم هو البدع الباطلة التی دعتهم إلی تحریف الکلم عن مواضعه، و فسروا کلام اللّه تعالی و سنة رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم بغیر ما أرید به، و تأولوه علی غیر تأویله. فأصحاب المنهج الفلسفی الکلامی خاضوا فی تفسیر الآیات المتشابهات و تأویل الصفات علی مقتضی العقل فقط، و أرادوا من الآیات أن تکون أدلة شاهدة علی أفکارهم، فأخذوا فی تأویلها بشتی الوجوه حتی یطابقوها علی ما یریدون، و إذا ما وجدوا آیات تقف ضد أفکارهم أخذوا فی تأویلها لتطابق أصولهم. و أما أصحاب المنهج الصوفی فقد استخدموا المنهج الإشاری الرمزی لآیات القرآن، لاعتقادهم أن کل آیة فی القرآن تخفی وراءها معنی باطنا مقصودا لا یکشفه اللّه إلا للخاصة منهم، و أن المعرفة الحقة الیقینیة لا تدرک إلا بالتأویل الباطنی العمیق و المجاهدة النفسیة فی حالات الکشف العلیا، و أن الوقوف علی ظواهر النصوص القرآنیة حجاب یمنع من الوصول إلی معرفة حقائق الأمور، و أن علم الظواهر یدخله الظن و الشک، و الکشف الباطن یرفع الظن و یزیل الشک. و أما أصحاب الغلو و المتعصبین فقد دأبوا علی حمل الآیات القرآنیة بشکل متکلّف لتأیید آرائهم و تثبیت أفکارهم، فالخوارج و الجبریة و المعتزلة ... هم أصحاب هذا المنهج، و من هنا أیضا یمکن وصف تدخل السیاسة فی تفسیر القرآن حینما أخذ بعض المفسرین یشیر إلی طوائف الحروریة و الخوارج، بل و حرب علی و معاویة و غیرها علی أن لها إشارات دالة فی القرآن الکریم، و قد کان للشیعة تفاسیر خاصة أیضا فی هذا المجال. و إذا عرفنا أن کل هذه الانحرافات قد دخلت فی التفاسیر عبر التاریخ، رغم ادعاء کل فئة إلی أنها هی الصواب و غیرها الخطأ، حتی عادت حرکة التفسیر من جدید إلی الوراء لتنقیة تفاسیر القرآن من الأغالیط، فاتجه بعض المتأخرین إلی الوقوف عند حدود تفسیر الرسول و الصحابة و التابعین له وقوفا حادا، و مع هذا فقد کان للإسرائیلیات نصیب کبیر فی بعض هذه التفاسیر لم یستطع أن یتخلص منها کلیا .. لقد کانت الصورة الکئیبة، التی عاشتها الأمة الإسلامیة حتی القرن التاسع عشر، الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۲ صورة تعکس وقف النشاط الفکری و العلمی و سیادة الخرافات، و اصطبغت العقلیة الإسلامیة بصیغة القعود و التواکل و انتشار الجهل، و لما کان الدافع الأساسی لحرکة هذه الأمة و انبعاثها هو القرآن الکریم فکان یجب أن یقع اللوم علی المفسّرین، الذین أقعدوا القرآن بتفاسیرهم و خرافاتهم علی أن یقوم بفاعلیته الأساسیة فی بعث الأمة، و أن یبقی منارا قائدا لها فی کل زمن و حین، و لهذا نری أن بدایات حرکة النهضة العربیة انطلقت من إعادة النظر إلی القرآن و إعطائه دوره فی بعث الأمة، و ذلک من خلال فهمه الفهم الصحیح، و تجاوز کل التفسیرات المشوّهة التی طرحت کل شیء

فی أقوالها إلا القرآن، و قد تجمد القرآن فی کتبهم فی أحسن أحواله بدراسات لغویة و لفظیة و بلاغیة و نحویة و معان جامدة تسودها الإسرائیلیات و الخرافات الباطنیة، حتی غطت بغبارها علی روح القرآن الحقیقیة التی کانت أساس بعث أمة أمیّة قادت العالم فی أنصع و أنضج حضارة فی تاریخ العالم، من هنا کانت دعوة جمال الدین الأفغانی إلی النهضة و الیقظة بإعادة النظر فی تفسیراتنا للقرآن. یقول الدکتور محسن عبد الحمید و هو یبحث المدرسة الحدیثة فی تفسیر القرآن «۱»: «هاجم الأفغانی بشدة المناهج التفسیریة التی أقحمت علوما و مصطلحات غریبة عقلیة و لغویة و نقلیة فی تفسیر الآیات، فحجبت حقائقه عن الناس، و صنعت من تفسیر آیاته أحاجی معقدة لا یستطیع إلا العالم الخبیر أن یقترب منها، و تحوّلت کتب التفسیر إلی میادین تعبیریة بالغة الصعوبة یستعرض فیها العالم قوته کلها لإغلاق العبارات، فحرم المسلم من تذوق القرآن و فهم آیاته و الانفعال بروحه. و دعا الأفغانی إلی فهم القرآن و السنة النبویة الصحیحة و أعمال السلف الصالح، أما ما تراکم علیه و تجمّع حوالیه من آراء الرجال و استنباطاتهم و نظراتهم فینبغی ألا نعوّل علیها و حیا، و إنما نعوّل علیها رأیا، و لا نحملها علی أکفنا مع القرآن فی الدعوة إلیه و إرشاد الأمم إلی تعالیمه ... و کان یدعو إلی منهج فی التفسیر یقلع ما رسخ فی عقول العوام و معظم الخواص من فهم بعض العقائد الدینیة و النصوص الشرعیة علی غیر أوجهها، مثل حمل نصوص القضاء و القدر علی معنی یوجب علیهم ألا یتحرّکوا إلی طلب مجد أو تخلص من ذل». و هکذا نری أن الدکتور محسن عبد الحمید یعتقد أن الأفغانی و محمد عبده، و رشید رضا أعادوا للقرآن صورته الحقیقیة بعد نزع کل الخرافات و التأویلات (______________________________ ۱) تطور تفسیر القرآن- د. محسن عبد الحمید، ص ۲۱۰. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۳ و التفسیرات اللغویة و اللفظیة، و کل ما حجب حقیقة القرآن و روحه عن المسلمین، و کان تفسیرهم المشترک «المنار» هو خیر التفاسیر التی قدمت لبدایة التفسیرات الحدیثة للقرآن «۱»: «إن ما یؤاخذ صاحب المنار المفسرین علیه هو إخضاعهم النصوص القرآنیة الواضحة للمصطلحات العلمیة و الفلسفیة و الأصولیة الحادثة، دون أن ینطلقوا من ضوابط صحیحة فی التفسیر اتفق علیها المحققون من علماء القرآن و فقهاء الأمة، فی تحدیدهم مفاهیم الألفاظ و استنباطهم الأحکام من مدلولات التراکیب، و بناء الأفکار الإسلامیة علی اتجاهات متینة متفقة مع تلکم الضوابط». لقد رد تفسیر المنار علی المفسرین بالرأی و علی الصوفیة و علی الباطنیة و أهل البدع، ثم قام بتنقیة التفاسیر من الإسرائیلیات الکثیرة و الأخبار الواهیة التی أفسدت، علی کثیر من المسلمین، حقائق الدین و قوانین الحیاة، فکوّنت عندهم عقلیة خرافیة تصدق کل خبر دون تمحیص أو تدقیق مما یصطدم أساسا مع الإسلام الذی دعا إلی التفکیر و النظر. علی أن الملاحظ علی هذا المنهج التفسیری العقلی، و نتیجة لموقعه بین ضغط الخرافة من جهة و ضغط الفتنة بالعلم من جهة أخری، مما جعله یمیل إلی جعل مألوف السنن الکونیة هی القاعدة الکلیة لسنة اللّه، فردّوا الکثیر من الخوارق إلی مألوف سنة اللّه دون الخارق منها، و إلی تأویل بعضها بحیث یلائم المعقول، و إلی الحذر و الاحتراس الشدید من الغیبیات، و هو ما ذکره سید قطب فی ملاحظاته علیه. إن هذا المنهج العقلی فی التفسیر هو الذی قاد لأن ینص، فیما ینص علیه من ضوابط، علی «۲» «المبدأ القائل کلما ازددنا معرفة بما فی الوجود من الأسرار و القوانین ازددنا علما بما فی کتاب اللّه، ذلک لأن الکون المنظور أعظم و أدق تفسیرا للکون المقروء، فلا بد إذن من الاستفادة من العلوم المتنوعة و الثقافات الإنسانیة المتعددة الحدیثة فی تفسیر القرآن فی داخل الضوابط الأصولیة المعروفة بین علماء الإسلام، التی تضبط الاتجاه لحرکة تفسیر القرآن فی کل عصر، و قد تکون هذه هی النافذة التی بدأ منها دخول التفسیر العلمی إلی القرآن بالمفهوم المعاصر، خاصة و أنه تاریخیا بدأ فیما یبدو بعدها بقلیل، و إن کان لم یلتزم فی بدایاته بالضوابط الأصولیة الخاصة بالتفسیر فانحرف إلی ما انحرف إلیه». لا شک أن التطرف فی التفسیر العلمی هو الذی جعله ینحرف عن مساره کتفسیر، إضافة إلی عدم تقیده بالضوابط المعمول بها للتفاسیر، و قد لخص الشیخ خالد العک (______________________________ ۱) تطور تفسیر القرآن- د. محسن عبد الحمید، ص ۲۱۳. (۲) المصدر السابق، ص ۲۲۱. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۴ انحراف تفسیر الشیخ طنطاوی

جوهری بالصور التالیـة «۱»: ۱) یفسّـر الآیات القرآنیة تفسیرا لفظیا مختصـرا، ثم سرعان ما ینطلق لذکر أبحاث علمیة مستفیضة یسمیها «لطائف أو جواهر»، و تلک الأبحاث المسـتفیضة بطبیعة الحال أفکار علماء الشـرق و الغرب فی عصـره، و هو بهذا جعل تفسیره یخرج عن موضوعه الأسـاس ألاـ «و هو إظهـار معـانی القرآن بالطریقـة الشـرعیة» حتی قال بعض نقاده «فیه من کل شـیء سوی التفسیر». ۲) إیداعه فی تفسیره صور النباتات و الحیوانات و المناظر الطبیعیة و تجارب العلوم، و هذا ما لا یعهده المسلمون فی تفسیر القرآن العزیز. ۳) اعتماده فی تفسـیر کثیر من الحقائق الدینیـة التی جاء بها القرآن نقیـة صافیة، علی ما جاء عن أفلاطون فی نظریته، و هذا ما لا یجوز شرعا لأن القرآن بحقائقه الثابتة الناصـعة بغنی عن أوهام الفلسفة الأفلاطونیة. ۴) رکونه إلی تفسیرات الباطنیة الباطلة فی رسائل إخوان الصـفا، فهو حین ینقلها یبدی رضاه عنها و تصدیقه بها مع أنها تخالف الثابت من نصوص الکتاب و السنة. ۵) استخراجه علوما مزعومة بواسطة حساب الجمل الـذی لا یوصل إلی حقیقـة ثابتـة، و هذه طریقة أخذت عن الیهود، کما أنه یعتمد أوهام تحضـیر الأرواح التی یقول بها الخرّاصون. هـذه هی مجمل الأمور التی جعلت تفسـیره یخرج عن منهج علمائنا الثقات الأثبات فی تفسـیر القرآن الکریم. أما مدّعی التجدید، کما یسمیهم خالد العک، فیذکر ثلاثة منهم، هم مصطفی محمود فی «تفسیراته العصریة للقرآن الکریم»، و الشیخ أبو زیـد الـدمنهوری فی «الهدایـة و العرفان فی تفسـیر القرآن»، و الأسـتاذ عبـد الودود یوسف فی تفسـیره «تفسـیر المؤمنین»، و یـذکر أن انحرافـات مصـطفی محمود نشأت من النقاط التالیـة «۲»: ۱) تصـویره أن القرآن الکریم إذا لم یقـدّم للنـاس علـوم الطب و التشـریح و الریاضـیات و الفلک و أسـرار البیولوجیا و الإلکترون و الـذرة، فلیس صالحا لزماننا و لا جدیرا بأن تسـیغه عقلیتنا العلمیة و یقبله منطقنا العصری. ۲) تفلّته من قیود الآـداب الإسـلامیة فی التعـبیر فی التفسـیر، فوقع فی أسـر الانفعـال و الرغبـة فی التعبیر المتحرر من الألفـاظ الرصـینة الهادفـة لأسـمی (________________________________ ۱) أصـول التفسیر و قواعده- د. خالد عبد الرحمن العک، ص ۲۵۳. (۲) المصدر السابق، ص ۲۵۵. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۵ المعانی التی تلیق أن یؤتی بها فی تفسیر کلام اللّه تعالی، حیث لم یهذّب عباراته بالتأدب فی حق اللّه تعالی و حق کلامه الکریم، کما لم یهـذب ألفاظه مع علماء الإسـلام فقـدح بهم علی لسان المتصوفـة النظریین. ۳) تمثله فی کتـابته بصورة المتلهّف الظمـآن إلی آفاق روحیـة مندفعـة اندفاع من أتخمه الشـبع المادی حتی أحس بثقل أغلاله، فانطلق وراء سـراب للخلاص، غیر عابئ بأی شـیء، فوقع فی شطحات الصوفیـة النظریـة، کما وقع فی تأویلات الباطنیة. ۴) و فی ضـجیج العصـرنة (الطنانة الرنانة)، یقدم تفسیره العصری فی صورة «العجـائب و الغرائب» التی تبهر بصـر العامـة فلا تعـد تری الرؤیـة الصـحیحة التی تمیز الحق من الباطل، و لا تقـدر أن تفصل بین منطق التفکیر العلمی الصـحیح و جرأة الادعـاء. هـذه هی مجمـل الأسـباب الـتی جعلت رجـل العصـر و العلم ینحرف فی تفسـیراته العصـریة للقرآن الکریم. أما الشـیخ أبو زیـد الـدمنهوری فقد أحدث ضـجّة کبری فی أوساط علماء الأزهر، حیث أنکروا علیه منهجه المنحرف فی تفسـیره، و انتهی الأمر بمصادرة الکتاب و الحکم علی صاحبه بالزیغ و الضـلال. أما «تفسیر المؤمنین»، لعبد الودود یوسف، فیکفی أن البوطی قـال عنه «أعتقـد أن جمیع العلمـاء یتفقون علی أن هـذا التفسـیر یحوی بین دفّتیه أخطـاء کثیرة جـدا جـدا، حتی لو تجاوزنا الأخطاء الشـکلیة التی تکون فی العبارة بسـبب الرکّة أو عـدم جلاء المعنی، لأن الکاتب ربما لم یسـتطع أن یوضح فکرته. لو تجاوزنا هذا .... فإن هناک أخطاء أخری فی الصـمیم، یعنی فی الأحکام فی تفسیر جوهر الآیات، و هذه الأخطاء، کما و کیفا، مهمة جدا». من کـل مـا تقـدم، نری أن الأخطـاء و الانحرافـات، الـتی وقعت فی بعض التفسـیرات العلمیـة و المعاصـرة، لم تقم علی أسـاس مبـدئی أو تأصـیلی، و إنما قامت و وقعت بسـبب عدم التزام الضوابط العامة لأی تفسـیر، و کل تفسـیر لا یلتزم بالضوابط العامة الموضوعة من قبل علماء الإسـلام لکل تفسیر، فإنه سـینحرف عن مسیرته سواء کان تفسیرا علمیا أو صوفیا أو باطنیا أو کلامیا، لذا فإن جمیع الملاحظات الواردة علی النماذج المذکورة، فی جانب التفسـیر العلمی و العصـری، لا تختص بتفسیر دون تفسیر، فهی ملاحظات منهجیة یخطئ بها کل من یتجاوزها و یقوم بالتفسـیر، لـذا فلن الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۶ تکون حجـة أو دلیلا حاکما لإهمال و ترک التفسـیر العلمی للقرآن، بـل و الإعجاز العلمی الجدیـد له. إن الأخطاء فی التفاسـیر موجودة، کما ذکرنا سابقا، فلا یعنی هـذا أن نترک

كل التفاسير لهذه الحجة، و نحن نرى أن الدكتور محسن عبد الحميد، بعد استعراضه للتفاسير عبر التاريخ، يقول عن هذا الاتجاه العلمى «۱»: «الذى أعتقده أن من الضرورى أن نستفيد من تطور العلوم و المعارف فى فهم كثير من الآيات الكونية فى القرآن الكريم، و الخطأ فى التفسير حينئذ لا يكون خطأ فيه، إذ من المسلمات عند العقلاء أنه ليس كل ما يذكره المفسرون، فى تفاسيرهم فى تفسير القرآن صحيح». على أن الحجة الأقوى، التى يذكرها المعترضون على مثل هذا التفسير، تتلخص، كما رأينا، عند العقاد و عند محمد الصادق عرجون و غيرهم كثير، هو الخوف من تسمية الحقيقة القرآنية الحقيقة العلمية، ثم يمضى زمن فنكتشف علميا أن هذه الحقيقة ليست علمية، و بالتالى ينتج أن نخطّئ القرآن أو نغير تفسيره عند كل مستجد من الحقائق العلمية، خاصة و أن العلوم تتطور و بشكل سريع يجعلها قد تنقلب من النقيض إلى نقيضه أحيانا، و بذلك نكون قد نزعنا عن القرآن يقينه المطلق المشخص، و سلّمنا أمره إلى التجارب العلمية الاحتمالية أو النظريات العلمية الافتراضية. و هنا يذكر الأستاد عبد الوهاب خلاف نصا واضحا لا لبس فيه، يدافع فيه عن هذا السلوك و الرأى فيقول «۲»: «و بعض الباحثين لا- يرتضون الاتجاه إلى تفسير آيات القرآن بما يقرره العلم من نظريات و نواميس، و حجّتهم أن آيات القرآن لها مدلولات ثابتة مستقرة لا تتبدّل، و النظريات العلمية قد تتغير و تتبدل، و قد يكشف البحث الجديد خطأ نظرية قديمة، و لكن لا أرى هذا الرأى، لأن تفسير آية قرآنية بما كشفه العلم من سنن كونية ما هو إلا فهم للآية بوجه من وجوه الدلالة على ضوء العلم، و ليس معنى هذا أن الآية لا تفهم إلا بهذا الوجه من الوجوه، فإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على ذلك لا خطأ الآية نفسها، كما يفهم حكم من آية و يتبيّن خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ». و إذا كان هذا الجواب لا يكفى لأنه يترك فكرة التغيّر على العلم قائمة و بالتالى يتغير التفسير معها، فإننا نجد تتمة الجواب الأوفى عند شعراوى الذى يقول، فى كتابه «هذا هو الإسلام»، و فى حديثه عن علاقة الحقيقة العلمية و القرآن، و تأكيده أن الحقيقة العلمية يجب أن تلتقى مع القرآن لأن القرآن كلام اللّه و حقائق الكون خلق

---

(۱) تطور تفسير القرآن- د. محسن عبد الحميد، ص ۲۲۶. (۲) علم أصول الفقه- عبد اللّه خلاف، ص ۳۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۷ اللّه، فلا بد أن ينسجما يقول «۱»: «إن الناس لا يفطنون إلى أهمية تحديد ما هو العلم؟ لا يقال علم إلا إذا كانت قضية و أنت تجزم بها و هى واقعة و عليها دليل، بغير ذلك لا يكون علما، و العلم من أجل اكتشاف حقائق الكون مفهوم أن يبدأ بالملاحظة ثم التجربة ثم النظرية ثم الحقيقة العلمية، فلا يقال حقيقة علمية إلا فى نهاية المطاف بأن تسلم، و كل الجزئيات تنطق على هذه الحقيقة و لا- تشذ عنها حقيقة، فإذا جئت لتخضع القرآن لملاحظة علمية نقول لك هذا غلط، لأنه من الجائز ألا تنجح الملاحظة بالتجربة، و إذا جئت لتخضع القرآن لتجربة علمية نقول أيضا هذا غلط، لأنه من الجائز ألا تنفع التجربة، و إذا أردت أن تخضع القرآن لنظرية نقول هذا غلط أيضا، لأن النظرية يمكن أن تخطئ، لكن إذا وصلت إلى حقيقة علمية نقول لك: إن لم يكن فى القرآن ما يؤيدها فليس فيه قطعا ما يعارضها، لكن نحن نقول أيضا إن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة باستمرار، ما يسمى بالحقائق العلمية اليوم يخضع للتغيير و التبديل غدا، هنا لا تكون حقيقة». و يضيف شعراوى أيضا: «إذن، فالذين يمنعون أن القرآن قد يلتقى ببعض الحقائق العلمية نقول لهم لا- لكن حققوا أولا- أنها حقيقة علمية، فإذا وصلت مسألة إلى مرتبة الحقيقة العلمية فالقرآن لا يعارضها، بل يمكن أن يؤيدها». إذن، فالخطأ ليس خطأ الحقيقة العلمية و إنما خطأنا نحن فى طريقة قراءتنا لها فى القرآن. يجب إذن أن نضع ضوابط لطريقة فهمنا و تفسيرنا للقرآن على ضوء العلم بهذه الدقة لكى لا تشتبه علينا الأمور، لأن أكثر الملاحظات الواردة على التفسير العلمى جاءت من أسلوب التعامل بين الحقيقة العلمية و القرآن، و على هذا الأسلوب، سليما أو خاطئا، كانت الأحكام تطلق على التفسير العلمى للقرآن رضا و قبولا، أو رفضا و احتجاجا، على أن من الملاحظات التى ذكرت على هذا التفسير أيضا أنها قد تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول فى القرآن، و هو الهداية و الإعجاز، و هو ما وصف به تفسير طنطاوى أن فيه كل شىء إلا التفسير، لأن إسراف المفسّر من هذا يجعل التفسير ليس بتفسير، حيث يكون أشبه بكتب العلوم و الفنون منه بكتب التفسير. لقد ذكر الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه «مناهل العرفان فى علوم القرآن» أن من آثار امتزاج العلوم الكونية بالتفسير ما يلى «۲»:

(____۱) هـذا هـو الإسـلام- محمّـد متولى شعراوى، ص ۲۵. (۲) مناهـل العرفـان فى علـوم القرآن- محمّـد عبـد العظيـم الزرقـانى، ج ۲ ص ۱۰۰. الأعجـاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۸ ۱) مسايرة أفكار الناس و معارفهم، و تفسير القرآن لهم تفسيرا يشبع حاجاتهم من الثقافة الكونية. ۲) إدراك وجوه جديدة للإعجاز فى القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون و الاجتماع. ۳) دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم و الدين. ۴) اسـتمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمى الذى يخضعون له دون سواه فى هذه الأيام. ۵) الحث على الانتفـاع بقوى الكون و مواهبه. ۶) امتلاء النفس إيمانا بعظمـة اللّه و قدرته، حينما يقف الإنسان فى تفسـير كلام اللّه على خواصّ الأشـياء و دقـائق المخلوقـات حسب مـا تصوّرهـا علوم الكون. كما أن لامتزاج العلوم الكونيـة و الآدميـة بالتفسـير آثارا أخرى مشتركة بينهمـا فيمـا يأتى: أ) زيادة الثقـة بالقرآن و عروبته و معارفه و إعجازه. ب) الإيمان بأنه كتاب غنى بكل ما يحتاجه إليه البشـر من ألوان السـعادة. ج) الإيمان بأنه كتاب السـاعة و دسـتور الناس إلى يوم القيامـة، يصـلح لكل زمان و مكان، و لا يسـتغنى عن كنوزه و ذخائره إنسان. إن أكثر الملاحظات و التفسـيرات الخاطئة المستشـهد بها لدى المعترضـين تقوم على كيفية و أسلوب تعامل القرآن مع الحقيقة كمـا ذكرنـا، و أحيانا نجـد أن المؤيـدين و المعارضـين فى التفسير على ذات الآيـة القرآنيـة و ذات الحقيقـة العلميـة، و لكن أسـلوب أحـدهما يقود إلى بينـة للمعارضـين و أسـلوب الآخر يقود إلى بيّنـة للمؤيـدين، فالاختلاف إذن ينصب على طريقـة تعامل و تعبير كل منهما عن هدفه، و إذا ما اتفقنا على أسلوب موحّد فإن كثيرا من ضجيج و براهين المحتجين و المعترضين على التفسير العلمى تسقط و لا تصـلح للاحتجاج بها، لذا فإن الدكتور محسن عبد الحميد يضـرب مثلا على المظهرين اللذين يجب أن يتخذهما التفسير العلمى فى نظره، فيقول «۱»: «أولهما: تسـخير الحقائق العلميـة فى كشف مـدلول الآية القرآنية، فاحتمال الخطأ هنا غير قائم، على سبيل المثال قوله تعـــالى قـــالَ فَمَـــنْ رَبُّكُمـــا يـــا مُوســـى (۴۹) قـــالَ رَبُّنَـــا الَّذِى

(____۱) تطور تفسـير القرآن- د. محسن عبد الحميد، ص ۲۲۶. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۹ أَعْطى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه/ ۴۹، ۵۰]، فإذا جئنا فسخّرنا علم الحياة كلها فى تفسير هـذه الآيـة و بيان عظمة الخلق الإلهى و دقته كان حسـنا و مفيدا جدا، لأننا سـنبين هنا سـر الإعجاز فى هذه الآية الكريمة. فنحن هنا نتحدث فقط عن تفاصيل خلق الكائنات و سبل الهداية المتنوعة الدقيقة و العجيبة التى زوّد اللّه بها تعالى تلك الكائنات، و لم ندّع أن القرآن فيه تفاصـيل علم الكائنات، لأنه من المعلوم أن تلك التفاصيل متروكة للعقل يكتشف فيها قوانين الحياة الدقيقة المتنوعة عبر الزمان و المكان. و ثانيهما: تفسـير آية قرآنية بحقيقة علمية أو نظرية علمية محدّدة المعالم، ففى قوله تعالى أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها [الرعد/ ۴۱] لا يمكن أن نقطع بأن الآيـة تـدلّ دلالة قطعية على كروية الأرض، أو هى المعنى المقصود فى الآيـة، لعدم قيام الدليل القطعى على ذلك لا من منطوق الآية و لا مفهومها، و لكن نسـتطيع أن نقول إنه من الاحتمال أن تكـون كرويـة الأرض ضـمن معنى الآيـة الكريمـة، و كـذلك قوله تعـالى أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُمـا وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ [الأنبياء/ ۳۰]. فالنظريـات العلميـة فى نشـأة الكون تـذهب إلى أن النجوم و الكواكب كانت، فى مبـدأ نشوئها، كتلـة سديميـة كبيرة جـدا تكونت منها تلك النجوم و الكواكب بفعل قوانين طبيعيـة فيزيائية معينة، فإذا جاء المفسّر فـادّعى أن المقصود بمعنى الآيـة تلك النظريات أخطأ فى مـدّعاه، و إذا قال ليس بعيـدا أن يكون ذلك المعنى هو المراد كان الاحتمال فى صـدق مـدّعاه قائما، و حينئـذ لم يفعل شـيئا إلا أنه اسـتأنس بتلك النظريات فى إلقاء الضوء على معنى الآية، فـإذا أخطـأ فى التفسـير، لبطلان تلك النظريات فى يوم من الأيام، كان الخطأ خطأ التفسـير و ليس بطلانا لمعنى القرآن الكريم فى آية من آيـاته». إن جميع هـذه المحاولات التوفيقيـة، بين مؤيـدى التفسـير العلمى و معارضـيه، اسـتدعت أن يوضع للتفسـير العلمى ضوابط محددة للمفسرين حتى لا يقع أحد فى التقول على اللّه بغير علم، فمن تقيد بها عصمته من الخطأ و الخطل. و مجمل هذه الشروط التى وضـــعها العلمـــاء هى «۱» : ۱) مراعـــاة شـــروط التفســـير العامـــة لكـــل تفســـير و المقرة مـــن قبـــل الأـــصوليين.

(____۱) أصول التفسير و قواعده- د. خالد عبد الرحمن العك، ص ۲۲۴. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۰ ۲) أن يكون التفسير للآيات الكونية مطابقا لمعنى النظم القرآنى. ۳) ألا يخرج حد التفسير إلى عرض النظريات العلمية المتضاربة. ۴) أن يتثبت المفسر من النظريات العلمية التى يفسر بها الإشارات القرآنية الكونية. ۵) ألا يحمل الآيات القرآنية على النظرية العلمية حملا، فإن كانت النظرية مطابقة للمعنى فبها و نعمت، و إلاـ ... فلا. ۶) أن يجعل مضمون الآيات القرآنية الكونية أصلا للمعنى الذى يدور حوله الإيضاح و التفسير. ۷) أن يلتزم بالمعانى اللغوية فى اللغة العربية للآيات التى يريد إيضاح إشاراتها العلمية، لأن القرآن عربى. ۸) ألا يخالف مضمونا شرعيا فى تفسيره. ۹) أن يكون تفسيره مطابقا للمفسّر من غير نقص لما يحتاج إليه من إيضاح المعنى، و لا زيادة لا تليق بالغرض و لا تناسب المقام. ۱۰) أن يكون مراعيا للتأليف بين الآيات و تناسبها و مؤاخاتها، فيربط بينها لتكون وحدة موضوعية متكاملة. و يبقى السؤال مطروحا عن مدى الحاجة و الضرورة التى تجعلنا نطرق تفسير القرآن علميا فى هذا العصر، أ لا يكفى فى دعاية البشر إلى الهداية المضامين و الأفكار التى فهمها العرب و المسلمون من القرآن فى القديم؟ و لما ذا ندخل هذا الباب الذى كثر فيه الخطأ حتى خشينا على القرآن أن يزداد تفسيرا باطنيا جديدا؟ ثم هل من القرآن نفسه ما يدعونا إلى طرق هذا الباب و يأمرنا به لكى نكون مأمورين شرعا به؟ و لو افترضنا أننا لم نطرق هذا الباب فهل نكون بهذا قد حجّمنا القرآن و قيّدناه بعصر دون عصره؟ و قللنا من صلاحيته لكل زمان و مكان؟ و إذا كان القرآن طالبنا بالتدبّر و التفكّر، أ لا يكفى سلاح العقل و ما قدّمه المتكلمون و الفلاسفة المسلمون لاستيعاب عملية التدبّر و التفكر القرآنى؟ و لاـ نحتاج إلى تجارب العلماء و بحث المختبرات التى تخرج كل يوم علينا بنظريات علمية جديدة و قوانين عن الكون و الطبيعة و الحياة، تنقض فيها ما سبق من نظريات و قوانين كانت تسميها هى نفسها علمية فتجاوزتها إلى غيرها، و لم تتوقف الحياة على شكل دون شكل من هذه النظريات و القوانين؟ و أخيرا، هل نستطيع مثلا أن نستغنى عن التفسير العلمى للقرآن و الإعجاز الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۱ العلمى فى هذا العصر، الذى لا يعرف إلا لغة العلم و الحضارة و الطاقة و المادة و النسبية، و لغة الرقم الحسابى فى الكمبيوترات تتحكم فى كل مفردات حياته؟ و للجواب على هذه الأسئلة جميعا كان علينا استعراض أفكار و آراء و مضامين الذين يؤيدون التفسير العلمى، و ما يعنيه فى العصر الحاضر أمام تصادم الحضارات و الأفكار و صراعها بين الشرق و الغرب، و بين المادية و الروحية، و بين معسكرات الإلحاد و معسكر الإيمان و أسلحة العلم و مختبراته و بحوثه، التى تخدم أغراض كل معسكر و كل اتجاه. فهل نستطيع أن نقف على الحياد أو نرفض التعامل مع العلم المعاصر و صراع التلسكوبات و الأقمار الصناعية تزدحم فى الفضاء، و صراع الميكروسكوبات مع الخلية الحية و مع مفردات الذرة و جسيماتها حتى ضاق العالم من التسميات الجديدة للاكتشافات داخل كل منها، فاستخدموا الكمبيوترات المتقدّمة لخزن المعلومات عنها بدل الكتب و الأوراق التى لا تتسع لها؟ هل نستطيع أن ندّعى أن ديننا و قرآننا صالح لكل زمان و مكان و نحن جالسين على التلّ لا نبدى رأيا، و ليس لنا رأى فى كل هذا لأن قرآننا نزل فى غير هذا العصر و لقوم أميين فسّروه عند معطياتهم اللفظية و البلاغية، و استخرجوا منه الأحكام التى يريدون و عمّموها، فنحن نطبقها كما هى و نفهم القرآن كما فهموه؟ ألا نكذّب نحن القرآن نفسه حينما نضعه هذا الموضع، و هو الذى دعا بأكثر من سبعمائة آية للتفكر و التدبّر علميّا بالكون و خلقه و خالقه، و يتوجه بالخطاب، فى خمسين موضعا، للذين يعقلون، و مائة موضع للذين يعلمون، و ثلاثين موضعا للذين يتفكرون و يتفقهون؟ ألا نكون مناقضين للقرآن نفسه و هو الذى يخاطبنا مباشرة بالجواب على كيف لفهم حقيقة الخلق أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ... الخ [الغاشية/ ۱۷- ۲۰] و إذا كان القرآن هو دليل و معجزة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه نبى من عند اللّه، فكيف سنحاجج أبناء هذا العصر، علماء و مثقفين و عوام، بأن رسولنا مرسل إلى الخلق كلهم حتى قيام الساعة، و لا نبى بعده لأنه خاتم النبيين، إذا لم يكن هذا الدليل و هذه المعجزة قائمة بعملها الإعجازى لكل العصور و أبنائها المخاطبين بهذا النداء؟ و لو كانت هذه المعجزة معجزة لأبناء العصر الذى أنزلت عليهم فآمنوا بها فى وقتها، فما الذى يجعل أبناء عصرنا و العصور اللاحقة لا

معجزة لـدیهم سوی الأخبار التاریخیة عن هذه المعجزة، فما الفرق بینها و بین معجزات باقی الأنبیاء الذین مضوا مع معجزاتهم الأعجاز العلمی فی القرآن(للسـامی)، ص: ۴۲ و لیس لهم دلیـل الیوم علی صـدق نبوتهم بمعجزاتهم غیر أخبـار یرویهـا التاریـخ؟ «إن الإیمـان بالنبوّة یقتضی وجود المعجزة، و التصدیق الجازم بخوارق العادات یحتاج إلی برهان، فمعجزة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم هی القرآن، و لا تزال هـذه المعجزة تتحدی منذ أكثر من أربعة عشـر قرنا و إلی الآن، أما معجزة الأنبیاء السابقین فإنها غیر مدركة و لا محسوسة لنا فی الوقت الحاضر» «۱». إذن، فإن المعجزة هی دلیل صـدق الأنبیاء علی دعواهم، و لقد كان القرآن و لا یزال هو المعجزة المثبتة لنبوة محمد صـلّی اللّه علیه و سـلّم، و فی ذلك یقول وحید الدین خان ... «۲»: «عن أبی هریرة عن النبی صـلّی اللّه علیه و سـلّم قال: (ما من الأنبیـاء نبی إلاـ أعطی من الآیات ما مثله آمن علیه البشـر، و إنما كان الـذی أوتیته و حیا أوحاه اللّه إلی، فأرجو أنی أكثرهم تابعا لیوم القیامـة). إن هـذا الحدیث النبوی یعین جوانب بحثنا الصـحیحة، فهو یقول إن أهم و سائلنا لمعرفة النبی هو الكتاب الذی جاء به مدّعیا أنه من عنـد اللّه، و القرآن هو رسالـة الرسول بین ظهرانینـا، كما أنه یبرهن علی صـدقه، فما الخصائص التی تبرهن علی أن القرآن من عنـد اللّه؟» و مما یذكره وحید الدین خان فی الإعجاز هو إعجاز القرآن بالتحدی الدائم علی أن یأتوا بمثله و نبوءات القرآن الغیبیة، و من ثم الإعجـاز العلمی فیه و یقول عنه «۳»: «إنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثیرة من عصـر العلوم الحدیثـة لم یتمكن أحد من إثبات أیـة أخطاء علمیـة فیه، و لو أنه كان كلاما بشـریا لكان هذا ضربا من المسـتحیل»، و یضـیف فی موضع آخر «۴»: «فالقرآن الكریم هو المعجزة الدالـة علی صـدق نبوة محمـد صـلّی اللّه علیه و سـلّم و ما عـدا القرآن من خوارق العادات التی ظهرت بین یـدیه فلا تعد من معجزاته لأنها لم تنقل بالتواتر، فضـلا عن كون المعجزة بالنسـبة إلی آخر الأنبیاء لا بد أن تظل قائمة بالتحدی و تلك الخوارق لم تعد قائمـة، یمكن أن توجـد لـدی غیر المسـلمین قناعـات بصـدق نبـوة محمـد صـلّی اللّه علیه و سـلّم». إذن، فعلی القرآن أن یقـول كلمته الإعجازیـة الیوم لكل العالم، و أن یتحـدّاهم و كأنه نازل الیوم من عند اللّه، و أن یبقی متحدّیا إلی یوم القیامة لكل عصـر بطابعه الذی یتمیز به، و عصـرنا عصـر علم و ثقافـة، فهـل نجـابه العالم بإعجاز بلاغی و لفظی و هو فیه من العلوم و المعارف ما لا یحیط به قلم و لا یحصـیه رقـم ...؟ و إذا مـا تكاسـلنا عـن أن نعطیـه دوره فـإن العملیـة لاـ تبقی فی حـدود الاختیـار لأـن معنی هـذا تكـذیب

(____ ۱) الأـصول الفكریـة للثقـافة الإسلامیة- د. محمّد الخالدی، ج ۲، ص ۲۴۵. (۲) المصدر السابق، ج ۲، ص ۲۴۶. (۳) المصدر السابق، ج ۲، ص ۲۶۶. (۴) المصدر السابق، ج ۲، ص ۲۸۶. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۴۳ القرآن الـذی قال إنه یتحدی العالم كله أن یأتوا بمثله أو بسورة من مثله، و نكذب الرسول صـلّی اللّه علیه و سلّم الذی قال: أرسلت إلی الناس كافّة، فكیف یصدّقه العالم الیوم دون معجزة؟ فأی كفر بعـد هذا؟ و ما نفعل بإیماننا إذا كنا نكذب قرآننا و نبینا، و ما الذی یبقی فی الإیمان بعد؟ إذن، فالإعجاز العلمی فی القرآن هو معجزة اللّه و رسوله إلی عصرنا، فكیف یجب أن نتعامل به؟ الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۴۵

التطبیق العملی من نظریة المنهج إلی التطبیقات العملیة

اشارة

التطبیق العملی من نظریة المنهج إلی التطبیقات العملیة لقد كانت بعض التجارب الفاشلة، التی ذكرناها سابقا و التی وقع بها المفسرون للقرآن تفسیرا علمیا، قـد دفعت بعض العلماء و الفقهاء لأن یقف موقف المعارض للتفسیر العلمی، و ذلك كان لا بسـبب عـدم قبول القرآن للتفسیر العلمی و إنما لأن الذین فسّروه آنذاك لم یلتزموا بالضوابط المحددة، سواء للتفسیر بشكل عام و للتفسیر العلمی بشكل خاص، و لذلك وقعوا فی أخطاء كثیرة فی مقابلة الآیة القرآنیة للحقیقة العلمیة، و لأن حماستهم الزائدة دفعتهم، بمناسبة و غیر مناسبة، لحمـل آیـات القرآن علی المكتشـفات و القوانین العلمیـة الحدیثـة مما جعلها تخرج بالآیات القرآنیـة عن معانیها اللغویـة و مـدلولاتها

الشرعیة، و تنحرف بها عن الغایة و الهدف السامیین اللذین جاءت من أجلهما، و مما جعلها أیضا تقع فی کثیر من المتناقضات حتی وصف أحد الکتاب عملهم بأنه «۱» «أشبه بالعبث منه بالدفاع عن القرآن أو إظهار إعجازه، بل ربما أوقع القرآن فی تناقض خطیر بسبب تأییده لنظریتین متناقضتین بدون ضابط أو قانون من لغة أو شرع». و بعد أن حددنا شروط التفسیر العلمی و ضوابطه، فلنأخذ نموذجا جیدا من التفسیرات العلمیة التی التزمت بالضوابط المحددة لمثل هذا التفسیر، بل و وضع هذا النموذج تحت عنوان (المعجزة القرآنیة) للدلالة علی مدی الثقة التی یولیها لهذا الجانب من التفسیر للقرآن. یبدأ الدکتور محمد حسن هیتو کتابه المعجزة القرآنیة (الإعجاز العلمی و الغیبی) بمقدمة یبنی علیها الکتاب و منهج الکتاب، و هی عن علاقة النبوة بالمعجزة و علاقة شمولیة الرسالة بختم النبوة فیقول «۲»: «إن نبینا علیه الصلاة و السلام هو النبی الخاتم للنبوة، و رسالته هی الخاتمة للرسالات، و أنها باقیة إلی یوم القیامة، و عامة لکل الأمم فی کل زمان و مکان، و لذلک کان لا بد للمعجزة من البقاء لیعاینها کل من آمن أو دعی إلی الإیمان إلی یوم القیامة». و بعد أن یذکر أن هناک أنواعا متعددة من

(۱) المعجزة القرآنیة- د. محمّد حسن هیتو، ص ۱۵۲. (۲) المصدر السابق، ص ۹۰۷.

الإعجاز، کالإعجاز الغیبی و الإعجاز اللغوی و الإعجاز العلمی، و بعد أن یشخص طابع العصر و سیادة المعارف العلمیة و بناء فلاسفة الإلحاد إلحادهم علی هذه الاکتشافات، من خلال ادعائهم أنهم عرفوا السبب و المسبب و العلة و المعلول عن طریق العلم الیقین، فلم یعودوا بحاجة الیوم إلی عزو هذه الظواهر، التی کنا نراها، إلی قدرة اللّه، و بالتالی وقع التناقض بین الکنیسة و العلم و الدین المسیحی و العلم، لأن الکنیسة بدینها، کما تعرضه، یتعارض مع العلم المعاصر. ثم ظهر الهجوم علی جمیع الأدیان، و منها الإسلام، عن طریق ضعاف الإیمان فی دیار الإسلام، و بسبب ضعف المسلمین و غفلتهم و سیطرة أعدائهم علیهم، بعد کل هذا یقول المؤلف: «و هنا ظهرت المعجزة القرآنیة کالمارد الجبار الذی لا یقف فی وجهه شیء إلا حطّمه، لتهتز الأبراج الوهمیة التی بناها فلاسفة الإلحاد بالتمویه و التدلیس علی غفلة من دعاة الدین الحق و بعد عنهم، و لتقول للناس جمیعا، من مؤمن و ملحد: مهلا أیها الناس، فإن هذا الذی وصلتم إلیه لن یکون سببا للجحود و الإلحاد، و إنما هو من أعظم دعائم الإیمان و الإذعان ... فتنبه کثیر من علماء المسلمین إلی آیات الإعجاز العلمی فی القرآن». إذن، فالإعجاز العلمی کان دعوة للإیمان ضد الإلحاد فی بدء ظهوره، و زاد إیمان المؤمن إیمانا و صار یعاین المعجزة القرآنیة، کما عاینها العرب الأوائل تماما و لکن بلغة العلم لا بأسالیب البلاغة و البیان، لأن غایة هذه المعجزة هو الدلالة علی أن القرآن کلام اللّه لا من کلام البشر مما یصدق نبوة محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و رسالة الإسلام. و لا یدری المؤلف إلی أی مدی سیصل الإنسان فی المستقبل من حیث العلوم و المکتشفات، و لکنه یؤکد أنه «۱» «علی یقین بأنه کلما تقدمت به العلوم سیضع یده علی معجزة جدیدة فی کتاب اللّه، کان فی غفلة تامة عنها، لیعیش الإنسان، فی کل زمان و مکان، مع المعجزة القرآنیة آیة بینة لا لبس فیها و لا غموض»، و هو یری، فی هذا الإعجاز، لکل إنسان و فی کل زمان و مکان معنی قول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (ما من الأنبیاء نبی إلا أعطی ما مثله آمن علیه البشر، و إنما کان الذی أوتیته و حیا أوحاه اللّه إلی، فأرجو أن أکون أکثرهم تابعا یوم القیامة). لقد أکد المؤلف، منذ البدایة، علی سلامة منطلقه الفکری لهذا العمل، من خلال ربطه بین شمولیة الرسالة و ختم النبوة و ضرورة وجود المعجزة المصدّقة لهما،

(۱) المعجزة القرآنیة- د. محمّد محسن هیتو، ص ۱۰.

و استمراریة هذه المعجزة عبر کل زمان و مکان، و إلا فإن الرسالة لیست شاملة لکل الناس حتی یوم القیامة، و أن النبوة یجب أن تستمر ما دام هناک أجیال لیس للّه علیهم حجة بدون رسول أو نبی ذی معجزة قاهرة لما تعارفوا علیه، و کانت سلامة منطلقه الفکری أیضا حینما اعتبر التحدّی المعرفی المعاصر الذی أسس الملحدون دعوتهم علیه لصرف النظر عن الإیمان و الدین، یجب أن یجابه بمعجزة تناسب هذا العصر من معرفة و علوم و مکتشفات، حیث أن القرآن کتاب هدایة و إرشاد، و لیس کتاب علم، و لکن بإعجازه جاء لکل العلوم و المعارف بنفس

لغاتها و من خلالها، لیصل إلی الإیمان و الدین الحق. و قبل أن یمارس المؤلف تفسیراته العلمیة أو ظواهر الإعجاز العلمی القرآنی حدّد منهجه الصحیح لذلک العمل فوصفه بأنه منهج «۱» «دون غلو تحمل به آیات القرآن ما لا تحمله من المعانی و الاحتمالات، أو تفریط تعرض به عن کثیر من الحقائق الکونیة و العملیة التی لا یجوز الإعراض عنها لجمود التفکیر أو قصور فی العلم و المعرفة». إذن، فالمؤلف بدأ بمقدمة سلیمة، علمیا و شرعیا، و استخدم منهجا لا تفریط فیه و لا إفراط، لا یخلو من الحماسة للعلوم و لا تقصیر عن الحقیقة العلمیة أن تلحق بالحقیقة القرآنیة، و کل هذا من شروط و ضوابط التفسیر العلمی المطلوب. بعد ذلک ینتقل المؤلف للحدیث عن الملاءمة و المناسبة بین الإعجاز العلمی و طابع المثقفین، عربا و أجانب، المخاطبین بهذا الموضوع «۲» «کما نجد المثقفین أکثر تمایلا و طربا عند ما نعرض علیهم وجها من وجوه الإعجاز العلمی فی القرآن الکریم، لا سیما إذا کان هذا الوجه قطعی الدلالة، بیّنا ظاهرا لا یحتاج إلی الاستنباط و الاستنتاج، و ذلک لأن هذا الوجه ملائم للثقافة التی یحملها أبناء العصر الحاضر، و التی أصبحت قاسما مشترکا بینهم جمیعا، و إذا کان هذا شأن مجتمعنا العربی، فمن باب أولی أن یکون هذا شأن غیره من المجتمعات». بل إن المؤلف یجد أنه لما کان القرآن نفسه یحث الناس علی النظر فی ملکوت السماوات و الأرض و مجال الکون و النفس، و یضرب للناس الأمثال لیلفت نظرهم إلی عظمة الخالق من خلال عظمة المخلوق، لذا فإنه یری واجبا علینا أن نبحث کل علم یکشف عن سر من أسرار القرآن و یثبت إعجازه، کما أنه یصل إلی التأکید علی اعتقاده بأن «۳» «هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو أبلغ هذه الوجوه، إذ یستطیع (______________________________ ۱) المعجزة القرآنیة- د. محمّد حسن هیتو، ص ۱۴۷. (۲) المصدر السابق، ص ۱۴۸. (۳) المصدر السابق، ص ۱۴۹. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۴۸ الإنسان، فی کل عصر من العصور، أن یجد بغیته فی کتاب اللّه من الإیمان بأن هذا الکلام لیس من کلام البشر و إنما هو من کلام اللّه، فکلما تقدمت العلوم الإنسانیة کشفت لنا عن سر جدید لم نکن قد اطلعنا علیه من قبل، و هذا وحده کاف لیدل علی أن القرآن لیس من صنع البشر، إذ یستحیل علی البشر، و لو کانوا علی قلب رجل واحد، و بتفکیر رجل واحد، أن یوجدوا مثل هذا الکتاب الذی لم تتخلف آیة واحدة من آیاته علی توالی الأیام و کدّ السنین و الأعوام». إن المؤلف یدرک حقیقة أن القرآن لم ینزل علی أنه کتاب جیولوجیا أو فلک أو غیرهما من العلوم، و إنما هو کتاب هدایة و إرشاد للبشریة الحائرة و دستور أو نظام حیاة للإنسانیة «۱» «یجب علینا أن لا ننسی الوظیفة الأساسیة التی جاء من أجلها، ألا و هی هدایة البشر و رسم المنهاج القویم، فلا یجوز لنا بعد أن ننحرف عن الوظیفة الأساسیة لکتاب اللّه، و تحمیل الآیات ما لا تطیق من المعانی العلمیة التی لم تسق الآیة من أجلها و لا نزلت لبیانها، و إنما هی من أوهام القارئ، و ربما انقلبت إلی ضرب من التأویل الباطنی الباطل، کما لا یجوز لنا، فی نفس الوقت، أن نجمد علی معارفنا القدیمة الضیقة و تفسیراتنا الجزئیة المحدودة المبنیة علی تلک المعلومات القدیمة ..... مما یؤدی فی النتیجة إلی فهم القرآن فهما غیر سلیم فی ضوء المعارف الحدیثة، و فی الآیات التی لها مساس بالعلوم». لذا، یعرض المؤلف الفئات الثلاث التی انقسم علیها الناس فی هذا المجال، فئة المحافظین المعارضین للتفسیر العلمی، و فئة مبالغة فی هذا التفسیر العلمی حتی تفسر الآیات علی قبول المفاهیم العلمیة، و فئة وسطی بین هذا الإفراط و ذاک التفریط، و هو یرد علی الفئة الأولی المعارضة للعلوم بقوله «۲»: «إننا، نحن المسلمین، مدعوون فی کل زمان و مکان و بنص الشرع إلی الاستفادة من کل حقیقة علمیة، لأن دیننا، دین العلم و المعرفة، لم و لن یتعارض فی یوم من الأیام مع حقائق العلم فی الکون و الحیاة»، و یعتبر موقفها تفریطا فی حق القرآن و إعراضا عن الفهم الحقیقی للآیات المتعلقة بالکون و الحیاة، و قد تقود لإیجاد فجوة بین الدین و العلم مما قد یؤدی إلی ما لا تحمد عقابه، کما حدث للکنیسة. کما یرد علی الفئة الثانیة، فی غلوها و مبالغاتها، بأنها تحمل آیات القرآن- بمناسبة و غیر مناسبة- علی المکتشفات أو القوانین العلمیة الحدیثة، مما جعلها (______________________________ ۱) المعجزة القرآنیة- د. محمّد حسن هیتو، ص ۱۵۰. (۲) المصدر السابق، ص ۱۵۲. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۴۹ تخرج بالآیات القرآنیة عن معانیها اللغویة و مدلولاتها الشرعیة، و هی التی وصفها بالبعث کما قدمنا. أما الفئة الثالثة، فئة التوسط بین جانبی الإفراط و التفریط، فهی لم

تتجمد جمود الفئة الأولی، و لم تتهور تهور الفئة الثانیة، و هذه الفئة قامت بما یلی: ۱) أخذت الآیات التی لها مساس بالعلوم و فهمتها بناء علی ضوء المعارف الحدیثة الیقینیة لا الظنیة، و فی نطاق قوانین الشرع العامة و قواعد اللغة الثابتة، فرأت فیها کل ما یدل کل ذی عقل علی أن هذا القرآن لیس من عند البشر و إنما من عند اللّه. ۲) وقفت عند ظاهرة النص القرآنی إذا کانت دلالته قطعیة، و إن کان یتعارض مع بعض النظریات العلمیة الرائجة، جازمة بأن الخطأ فی النظریة العلمیة، و أن علی أصحابها أن یبحثوا عن وجه الصواب فی موضوعها مستندة علی أن العلم لا یتناقض مع الدین، أو القرآن مع القوانین الیقینیة الثابتة. هکذا، یعرض الدکتور محمد حسن هیتو منهجه فی الإعجاز القرآنی فی کتابه «المعجزة القرآنیة»، متسلّحا بکل الضوابط التی وضعها العلماء، فکان کتابه خیر نموذج للتفسیر العلمی للقرآن، حیث فسّر فیه اثنی و عشرین آیة قرآنیة بضوء مفردات العلم الحدیث، کما أنه رد علی مفهوم الإعجاز العددی فی القرآن، کما ورد عن رشاد خلیفة، و ربطه بالتفسیر الباطنی الیهودی، فهو یرفض أن یضع فی القرآن ما لیس فیه بحجة التفسیر العلمی، کما فعل رشاد خلیفة. إن کتاب «المعجزة القرآنیة» هو خیر نموذج للتفسیر العلمی للقرآن، مبدأ و منهجا و تطبیقا، و بمقدار ما نقرأ فیه من علوم و معارف نجد فیه وظیفة القرآن فی الدعوة و الإرشاد و الهدایة متحققة، فلا نضیع وسط معلومات عن أنظمة الخلق و المخلوقات و ننسی رب الخلق و رب المخلوقات و أنظمتها و قوانینها. و إذا ما أخذنا نموذجا تطبیقیا لمنهج الدکتور محمد حسن هیتو، فإننا سنری مقدار وضوح الإعجاز العلمی فی الآیات القرآنیة التی یختارها منه. ففی تفسیره العلمی للآیة الثامنة عشرة، و التی وضعها تحت عنوان وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [الذاریات/ ۴۹] و شعار (علماء الکون و الحیاة فی قانون الزوجیة الیقینی) یقول: «لقد تکرر ذکر الأزواج فی القرآن الکریم من أوله إلی آخره مرات کثیرة، و فی جوانب متعددة من جوانب الحیاة، بل نصت بعض الآیات علی أن کل شیء خلق فی هذا الکون خلق علی قانون الزوجیة، فقال تعالی وَ تَرَی الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ [الحج/ ۵]، و قال تعالی الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۵۰ وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِیها زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ [الرعد/ ۳]، و قال أ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی الْأَرْضِ کَمْ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ [الشعراء/ ۷]، و قال جل و علا وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [الذاریات/ ۴۹]، و قال وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی [النجم/ ۴۵]، و قال وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْکَبُونَ [الزخرف/ ۱۲]، ثم قال تعالی: سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ [یس/ ۳۶]، إلی آیات کثیرة فی القرآن الکریم، تتکلم عن الأزواج و عن خلقها، و أن هذه الأزواج موجودة فی جمیع معالم الکون و الحیاة وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ. إذن، فالزوجیة لا بد أن تکون موجودة فی کل شیء یمکن للإنسان أن یضع یده علیه، و لیست مقصورة علی ما یکون من الذکر و الأنثی فی النبات و الحیوان، أو علی ما یمکن أن یتصف بالذکورة و الأنوثة و لو مجازا، لأن الصیغة التی وردت من أبلغ صیغ العموم و أکملها وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ. و حینما یستعرض الدکتور هیتو رأی علماء السلف و أقوالهم فی الزوجین یقول بأن فهمهم لهذه الآیة کان ضمن طاقاتهم و إمکانیاتهم و معارفهم، فیما وضعوا علیه أیدیهم من معالم الکون و الحیاة، حیث فسرها الطبری، عن مجاهد، بأنها بمعنی الکفر و الإیمان و الشقاوة و السعادة و الهدی و الضلالة و اللیل و النهار و السماء و الأرض و الإنس و الجن، و روی عن الحسن البصری أنه قال فی هذه الآیة: الزوجان هما الشمس و القمر، و روی عن ابن زید أنه قال فیهما هما الذکر و الأنثی ... ثم قال الطبری: و أولی الأقوال فی ذلک قول مجاهد، و هو أن اللّه تبارک و تعالی خلق لکل ما خلق من خلقه ثانیا له مخالفا فی معناه، فکل واحد منهما زوج للآخر و لذلک قیل زوجین، و إنما نبّه جل ثناؤه خلقه علی قدرته علی خلق ما یشاء خلقه من شیء، و أنه لیس کالأشیاء التی شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ کل ما صنعته فعل نوع واحد دون ما عداه، کالنار التی شأنها التسخین و لا تصلح للتبرید، و کالثلج الذی شأنه التبرید و لا یصلح للتسخین، فلا یجوز أن یوصف بالکمال و إنما کمال المدح للقادر علی فعل کل ما یشاء من الأشیاء المختلفة و المتفقة .... و لو أننا تتبعنا کتب المفسرین علی اختلاف مناهجهم، من السلف و الخلف إلی عصر النهضة العلمیة، لوجدناها متفقة تقریبا علی هذا الذی قاله الإمام الطبری رحمه اللّه تعالی، مع توسّع بعضهم فی تعداد الأنواع التی لها ضد أو نقیض أو

نـدّ، أو شبيه، و اختصـار بعضـهم الآخر و التقـائه بـذكر الـذكر و الأنثى، و هـذا هـو الـذى كـانوا يشاهـدونه الأعجـاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۱ أو يعلمونه رضـى اللّه عنهم. و لكن هل هـذا الـذى ذكروه هو كل ما نسـتفيده من هذه الآيات التى تتحدث عن خلق الزوجين؟ الجواب و بكـل تأكيـد: لا، و هـذا الـذى يشـير إليه تعالى فى سورة يس سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]. إذن، فليس الأمر فى خلق الزوجين مقصورا على ما كان معروفا للناس فى القديم، و إنما هناك أشياء أخرى خلقها اللّه زوجين زوجين مما لم يعرفه الإنسان القديم، و كشفت عنه العلوم الحديثة، بوسائلها العلمية الدقيقة المذهلـة المعاصـرة، التى أعطت الإنسان من القـدرة على الإدراك أضـعاف ما كان يملكه الإنسان القديم آلاف المرات، من المجاهر الألكترونية و المقاييس الدقيقة الحساسـية، و سفن الفضاء و القوانين العلمية. فلقد توصل العلماء فى العصر الحديث إلى إدراك الكثير و الكثير من خلق الأزواج مما كان مجهولا فى الماضـى، و مما نفهم به معنى جديـدا فى قوله تعالى وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ بل لنفهم ما هـذه الآية و ما فى معناها أنها يسـتحيل أن تكون من قول البشـر، و إنما هى من قول خالق الأرض و السـماء و عالم السّرّ و العلن، إذ أخبرت عن الزوجيـة فى أشـياء لم يكن أهـل العصـر الأول يعرفونهـا، و إنمـا هى من معارف هـذا العصـر، كما أخبرت الآيات التى معناها بأن الزوجية فى كل شـىء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه، فإن أدرك الزوجية به فبها و نعمت، و إلا فسيدركها الجيل و الأجيال القادمة بما يمكن أن يتوصـلوا إليه من معارف و وسائل، و لـذلك فإنه يجب عليه أن يتابع البحث عنها. بعـد هـذا التقديم، يقوم الدكتور هيتو بعقد فصول الزوجية فى كل شـىء كما كشـفتها العلوم المعاصرة، فيعقد فصلا حول الزوجية فى الإلكترون أو الكون و الكون النقيض، و فصـل حول الزوجيـة فى الخليـة الجنسـية، و فصل حول الزوجيـة فى الكروموسومات، و فصل حول الزوجيـة فى الكروموسومات فى الخليـة الجنسـية، و فصل حول الزوجيـة فى الجينات وراء الزوجيـة فى الكروموسومات، و فصل حول الزوجية فى تكوين الجينة نفسـها وراء سـر مجيئها أزواجا، و فصل حول الزوجية فى تركيب أشـرطة الجينة وراء سر الزوجية، و هو بهذا يجعل اكتشافات العلم فى جميع هـذه المفردات العلميـة تتحدث عن الزوجية مصداقا لقول اللّه سـبحانه و تعالى فى الآيات المذكورة سابقا، بل يصل إلى حد أن العلم بعـد هـذه الاكتشافـات للزوجيـة فى كل شـىء، بـدأ يبنى كل افتراضاته، حتى النظريـة، على هـذا الأساس، و من ثم يأتى العلم بتجاربه مؤكدا لهذه الافتراضات و مصدقا. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۲

الزوجية فى الإلكترون، أو الكون و الكون النقيض

الزوجيـة فى الإلـكترون، أو الكون و الكون النقيض إن الإنسان، أو أى كائن حى آخر، يتكون من أعضاء، و هـذه الأعضاء تتكون من أنسـجة، و الأنسـجة تتكون من خلايا، و الخلايا تتكون من جزئيات، و الجزئيات تتكون من ذرات، و الـذرات تتكون من جسـيمات، و هـذه الجسـميات تعتبر أصـغر وحـدة من وحـدات المـادة. فجسـيمات الـذرة الأوليـة هى: البروتون و النيوترون و الإلـكترون، أو بمعنى الموجب و المتعادل و السالب، و لقد كنا نسـمع من أساتذتنا أن اللّه خلق من كل شىء زوجين، حتى الذرة خلقها اللّه من زوجين هما النواة و الإلكترون الذى يدور حولها، أو هما السالب و الموجب فيهما، إلا أن هذه المعارف أصبحت بديهية و بدائية، و ليست هى مما أريـد الكلام عنه، و إنما هو أمر وراء الـذرة، إنه أمر تكوين جسـيماتها، فى أصل خلقه الأول، لنضع أيـدينا على سـر جديد من أسـرار الإعجـاز الإلـهى فى خلقه و آيـاته. فى عام ۱۹۲۸ خرج العـالم الرياضـى الشـاب بول ديراك، الإنـجليزى، خرج على الملأ بنبإ غريب مضمونه معادلة رياضية أصلية تتناول طبيعة الكون. تنبأت هذه المعادلة بأن خلق الإلكترون لن يتأتى إلا عن طريق خلق الزوجين، و هو ما يعرف، بالأوساط العلميـة الفيزيائية، بهذا المعنى أيضا (noitaercorP)، أى خلق الأزواج أو الزوجين. و لم يكن المراد بهـذا أن الخلق يكون عن طريق إعطـاء إلكترونين أو بروتونين أو نيوترونين، و إنمـا كـان بمعنى خلق الإلـكترون و الإلكترون النقيض، علما أن هذه النقائض المادية لا يمكن أن يجتمع بعضـها لا فى الزمان و لا فى المكان. فبمجرد خلق الزوجين فى عالمنا لا بد أن يهلك أحدها الآخر و يفنيه حين التقائه إياه، هذه هى المعادلة التى أتى بها بول ديراك، و التى تحمل هذا النبأ الغريب، مما جعل الناس لا يلقون لها

بالا، إذ لم تکن عقولهم تهیأت لهـذا بعـد. و لکن هل تحقق ما تنبأ به دیراک؟ لقـد کان العلماء فی الماضـی یطلقون إلی الجو أجهزة علمیـة داخل بالونات لتسـجیل سـر الأشـعة الکونیـة التی تأتی من السـماء، و فی عام ۱۹۲۳ اسـتقبل أحـد العلماء الأمریکیین، المهتمین بدراسة الأشـعة الکونیة، و هو کارل أندرسون، اسـتقبل مسارات هذه الأشعة علی ألواح حساسة، و هذه المسارات بمثابة البصمات عند الإنسان، تحدد للعلماء صـفات تلک الأشـعة و طبیعتها و شـحنتها و شخصیتها. لقد لفت نظره من بین المسارات الکثیرة المسجلة مسیرة غریبـة، ففی لحظـة واحـدة خاطفـة ظهر علی لوحه الحسـاس ولادة جسـمین من نقطـة واحـدة، انطلق أحـدهما إلی الأعجاز العلمی فی القرآن(للسـامی)، ص: ۵۳ جهـة الیمین و انطلق الآـخر إلی جهـة الیسـار، مما جعل أنـدرسون حائرا فی هـذا المشـهد، إذ أن المسارین لألـکترونین یقینـا، و لکن ما هو السـبب الـذی جعلهما یبتعـدان و یفترقان أحـدهما عن الآخر و کأن أحـدهما عـدو لقرینه؟ لم یتمکن أندرسون من معرفة السـبب، و ذلک لأنه لم یکن قد اطلع، وقت مشاهدته لهذه الظاهرة، علی معادلة دیراک الریاضیة التی أشرنا إلیها، و التی کان قـد نشـرها قبل ثلاث سـنوات فی إحـدی المجلات العلمیـة البریطانیـة، إذ لو کان قد اطلع علیها لما تحیّر تلک الحیرة فیما رأی و شاهـد. و جاء بعد أندرسون الأمریکی عالمان بریطانیان عرفا ما توصل إلیه أندرسون عملیا بألواحه الحساسة، کما عرفا المعادلة التی أشار إلیها دیراک قبله نظریا، و بجمعهما، بین نتیجـة أنـدرسون العملیة و معادلة دیراک الریاضـیة النظریة، أدرکا السـر العظیم فی مسار الإلکترونین، و أشارا إلی أن معادلـة دیراک التی تنبأت بخلق الزوجین صـحیحة تماما، علی ما أثبته أنـدرسون بألواحه. لقـد کان ذلک الیوم الذی توصل فیه العلماء إلی تسـجیل بدایة خلق أصـغر و أبسط زوجین فی العالم، کان یوما مشـهودا فی تاریخ العلم. و من أجل هذا الاکتشاف المثیر الذی توصل إلیه دیراک، من خلال معادلته العلمیة الریاضـیة، حصل علی جائزة نوبل فی العام التالی لتحقق ما تنبأت به معادلته، و هو بالنسـبة لنا نحن المسـلمین یعتبر یوما مشـهودا، إذ أثبت فیه العلم الحدیث، فی أدق مباحثه و أبدع اکتشافاته، مـا أخبر به القرآن الـذی سـبقت آیـاته معادلـة دیراک بأربعـة عشـر قرنا، إذ قال تعالی وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [الذاریات/ ۴۹]، و قـال سُـبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ [یس/ ۳۶]. نعم، ... إنه لیوم مشـهود لنا نحن المسـلمین، إذ ثبت للعالم أجمع أن هـذا القرآن لم یکن من صـنع البشـر، و إنما هو الآیة القاطعة الناطقة بأنه من صـنع خالق الکون و الإنسان و الحیاة، و العالم بکل صـغیرة و کبیرة مما خلق علی أبدع نظام و أتم تقدیر، و هل هذا کل ما فی الأمر بالنسـبة للأزواج؟ .. الجواب، لا. لم یقف الأمر عنـد هذا الحد الذی ذکرناه، و ذلک لأنه وضع أیدینا علی سـر جدید و هو أن هذا الکون، فی أرضه و سـمائه و جزئیاته و ذراته، لیس فی الحقیقـة إلا طاقـة اتخـذت صورة المادة بجسـیماتها و ذراتها، و أن هذه الجسـیمات حینما تجسدت تجسّدت علی شـکل زوجین و لم تتشکل مفردة. فمولد أو خلق الزوجین اللذین ظهرا علی لوح أندرسون لم یظهرا من عدم، بل کان من وراء تخلیقهما طاقة، أو ومضة ضوئیة، و هذه الومضة تنطلق علی هیئة موجة، و تجری فی الکون بسـرعة الضوء، ۱۸۶ ألف میل فی الثانیـة، الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۵۴ و الواقع أن هـذا الکون- علی قـدر ما نعرفه الآن- له مظهران، فهو أحیانا نـدرکه أو یظهر لنا علی شـکل موجـة، و هـذه الموجـة لا زمان لها و لا مکان، أی فی المقاییس الریاضـیة الحسـیة، و أحیانا أخری قد تتخلی الموجة أو الطاقة عن صـفتها الطلیقة المتحررة، و تتجسّد علی هیئة مادة کجسـیمات ذریة، و هی فی هذه الحالة تأتی علی قانون اللّه الأـزلی فی الخلق زوجین زوجین .. و فی المفاعلاـت النوویـة الجبـارة یعیش العلمـاء مع خلق الأـزواج لیـل نهـار، و فیها یسـجلون تجسـید الطاقات أو الموجات علی هیئـة جسـیمات کثیرة و علی الألواح الحساسـة، أو فی غرف الغیوم التی توضح بدایة خلق الأزواج، یسـجل العلماء مولـد الإلکترون و نقیضه أو البروتون و نقیضه أو النیوترون و نقیضه، ثم إن هناک جسـیمات ذریة أخری کثیرة، و هی غیر الجسـیمات الأساسـیة الأولیة الثلاثة، التی ذکرناها، فما من جسیم منها یتجسّد- صغر شأنه أو کبر- إلا و یظهر معه فی نفس اللحظة نقیضه، ثم إنه فی کل حالـة من هـذه الحالات یظهر الزوجان و یتخلقان أمام أعین العلماء، لکن الشـیء المثیر هو أن النقیض لا یمکن أن یعیش فی مکـان واحـد مع نقیضه. فإذا تقابل إلکترون مع إلکترون نقیض، فلا بـد أن یزولا و یتخلّیا عن تجسّـدهما المادی و یعودا إلی سـیرتهما الأولی، أی إلی موجات متحررة. و الشیء الذی یعتبر أکثر إثارة و دهشة أن لکل شیء فی هذا الکون نقیضا ما عدا شیئا

واحـدا ألا و هو الطاقـهٔ أو الموجـهٔ المتحررهٔ أو النور، فلا نقيض له، و إنما تظهر النقائض فقط عند ما تتجسّد هذه الموجهٔ أو هذا النور أو تلـک الطاقـهٔ، و يؤدى إلى خلق الزوجين. لمـا ذا و کيف؟ لاـ أحـد يـدرى. فطبيعـهٔ الکون تضع أمامنا حقائق الوجود بصورهٔ مثيرهٔ، فبدايهٔ الخلق أزواج، و الأزواج جسيمات أو هى تجسيد لطاقهٔ أو ومضهٔ أو نور، خذ منها ما تشاء، فلا أحد يستطيع هنا أن يؤکد أمرا أو يحدّد شيئا، کما يقول الدکتور عبد الحسن صالح فى بحثه عن الأزواج، و کلما تعمّقنا فى طبائع الأشياء، و ظننا أنا قد وصلنا فيها إلى قرار أشاحت الحقيقـهٔ بوجهها و تجلّت لنا أکثر إثارهٔ و وضـعتنا فى مآزق فکريهٔ جديدهٔ ... إن الذى نعرفه حقا أن المادهٔ تجسـيد لطاقهٔ أو قوّهٔ، و هـذه الطاقـهٔ وراء حدود العقل و الخيال، و أن هذه الطاقهٔ المتجسّدهٔ تتجسّد أمام أعيننا أزواجا أزواجا، و لکن ما ذا يعنى هذا ...؟ إنه يعنى، و بکل ثقـهٔ، ما أخبر اللّه عنه قبل قرون طويلـهٔ مما يدلّ على عظمته و علمه و قدرته، و مما يدلّنا دلالهٔ قاطعهٔ على أن هذا القرآن کلامه و وحيه، إنه يعنى قوله تعالى: وَ مِنْ کُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [الـذاريات/ ۴۹]، کما الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۵ يعنى قوله سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]. و لکن هل هـذا کل ما فى الأمر؟ .... و هل اقتصـرت المکتشـفات العلميهٔ على اکتشاف الزوجين فى الجسـيمات الذريّهٔ من الإلکترون و نقيضه أو البروتون و نقيضه أو النيوترون و نقيضه، أم أنهم وضـعوا أيـديهم على أمور أخرى ربمـا کـانت أکثر إثارهٔ و دهشـهٔ فى هـذا الکون ....؟ لا شک أن ما ذکرناه لم يکن کل ما فى الأمر مما يتعلّق بالآيـهٔ، فقد قال تعالى وَ مِنْ کُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ. إذن، فلا بد أن تکون هناک أمور أخرى عرفها الإنسان المعاصر مما لم يکن يعلمه الناس قديما، و فيه الإثارهٔ و الدهشهٔ مما يذهل عقل الإنسان، و مما يدل دلالهٔ قاطعهٔ على إعجاز القرآن.

الکون و الکون النقيض

الکون و الکون النقيض لقـد سيطرت فکرهٔ الخلق أزواجا، بعـد معادلـهٔ ديراک و ألواح أندرسون و تجارب العلماء فى المعامل الذريّهٔ الضـخمهٔ، لقد سيطرت فکرهٔ الخلق أزواجا على عقول العلماء، و صار من البديهيهٔ اليقينيهٔ عندهم أنه من تمام انتظام الکون و تعادله و تـوازنه أن يکـون الخلق فى کـل شـىء على طريقـهٔ الأـزواج، و کـأنهم اتخـذوا من قوله تعـالى وَ مِنْ کُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنـا زَوْجَيْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ، کأنهم اتخـذوا من هذه الآيهٔ دسـتورا لمباحثهم العلميهٔ، فکل شـىء فى هذا الکون يجب أن يکون على نظام الزوجيهٔ، فخلق الإلکترون لا بد أن يصحبه خلق الإلکترون النقيض، أو البوزيترون، کما بيناه فى الفقرهٔ السابقهٔ، و خلق النيوترون لا بد أن يصاحبه خلق النيوترون النقيض .... هکـذا ... و لکن صـفات الإلـکترون تخـالف و تنـاقض تمامـا صـفات البوزيترون أو الإلکترون النقيض، فإذا دار الإلـکترون حول نفسه من اليمين إلى اليسار دار الإلکترون النقيض من اليسار إلى اليمين، و إذا حمل الإلکترون شـحنهٔ کهربائيـهٔ سالبهٔ حمل البوزيترون شـحنهٔ موجبهٔ، و إذا کان المجال المغناطيسى للألکترون يتّجه إلى الأعلى، کان المجال لنقيضه يتجه إلى الأسفل، من أجل هذا کان من المسـتحيل أن يجتمعا، فإذا ما قدّر اجتماعهما کان لا بد أن يفنى أحدهما الآخر، و هذا الصـراع العنيف الذى يؤدى إلى الفنـاء يشـهده العلمـاء فى معـاملهم و فى طبقات الجو العليا و فى الفضاء الخارجى، إذ کثيرا ما تتجسّـد الطاقـهٔ، و عنـد ذلک تظهر الجسـيمات الذريهٔ أزواجا، فأما الذى فى عالمنا فيبقى، و أما الذى جاء نقيضا لجسـيمات عالمنا فلا بد أن يتخلّى عن تجسّده و يفنى، و يعود ومضـهٔ سائحـهٔ فى هـذا الکون الرهيب. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۶ و بهـذه الحقائق اليقينيـهٔ، التى وضع العلماء أيـديهم عليهـا و آمنوا بها، أصبحوا يتساءلون: ما دام الأمر کـذلک، فهل يمکن أن يکون هناک ذرهٔ و ذرهٔ نقيض لها، أو مادهٔ و مادهٔ نقيض لهـا، أو کون و کون نقيض له، إذ لاـ بـد لکـل شـىء أن يکون زوجين ...؟ ... و بمواصـلهٔ البحث توصل العلماء إلى تخليق ذرهٔ هيـدروجين نقيضـهٔ، إلا أن تخليقها لم يدم لأکثر من لحظهٔ واحدهٔ خاطفهٔ، إذ جاء کل ما فيها معاکسا لذرهٔ الهيدروجين المعروفهٔ، و لا يمکن أن تعيش إلا فى عالم آخر غير عالمنا، و هـذا الأمر مسـتحيل فى عالمنا، إذ لا بـد لها أن تصـطدم فى لحظـهٔ خاطفهٔ، بجزئى من جزئيات الهواء، أو أى شـىء فيه نقيضـها لتحطمه و يحطمها، و تعود إلى طاقهٔ سابحهٔ فى هذا الکون. بعد هذه التجربهٔ و هذا الاکتشاف

تطورت معارف العلماء و أصبحوا يوقنون أن فكرة خلق الأزواج ليست قاصرة على الجسيمات الذرية، بل تعدّتها إلى أنه لكل ذرة فى هذا الكون ذرة نقيضة لها، و هذا يعنى أن خلق الأزواج لا بد أن يمتدّ إلى جزئيات الخلية، بل إلى الكون بأسره من الأرض و النجوم و الكواكب و المجرات، إذ لا بد لها أن تكون أزواجا ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ [الملك/ ۳]. و هذا يعنى أيضا أن بناء الكون النقيض فى ذراته لا بد أن يكون معكوسا أو نقيضا لبناء عالمنا الذرّى، بما فيه من شموس و أقمار و كواكب، و نحن لا يمكننا أن ندرك هذا، و لا يمكننا أن نفرّق مثلا بين النجم و نقيضه لأننا نراهما بواسطة الضوء الواصل إلينا منهما، و قد ذكرنا أن النور لا نقيض له، و إنما يظهر الزوج أو الجسم و نقيضه عند تجسّد النور أو الطاقة، و لكننا يمكننا أن ندرك النجم و نقيضه مثلا عند ما يقترب أحدهما من الآخر و يتلاحمان، و يبدأ كل منهما بإفناء الآخر و تحويله إلى موجات ضوئية لا قبل للعقل بتصورها، بل لا قبل للخيال بذلك، و ذلك، كما يقول العلماء، لو تقابل مثلا إنسان من عالمنا مع إنسان من العالم النقيض سيتحولان فى لحظة خاطفة إلى طاقة ناتجة عن انفجار كونى جبار لا يقل عن الطاقة المتحررة من تفجير مائة ألف قنبلة من القنابل الهيدروجينية، فكيف لو تقابل نجمان أو مجرتان ... إنه لا يمكن للعقل أن يتصوّر ما ذا سيحدث. و من أجل هذا كان هذا التباعد الهائل فى الفضاء بين المجرّات و عوالم هذا الكون الرهيب الرحيب، فالمسافة بين المجرات لا تقاس بالأميال و لا بملايين الأميال و إنما بملايين السنين الضوئية. إن الذى دفع العلماء إلى هذا التفكير المثير فى خلق الكون و الكون النقيض إنما هو الواقع الذى رأوه فى تجسيد الإلكترون الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۷ و الإلكترون النقيض، و ما قاموا به من تخليق ذرة الهيدروجين النقيضة، و ما إلى ذلك مما ذكرنا، مع ما أصبح يقينا عندهم من الوحدة فى الخلق على كل المستويات، و التى تستلزم وجود المادة و المادة النقيضة، أو بعبارة أخرى أوضح فى موضوعنا ألا و هى أنها تستلزم وجود الخلق أزواجا. لقد عكف العالم السويدى الشهير (أوسكار كلاين) سنوات طويلة على دراسة هذا الموضوع و خرج برأى يقول: «إن المادة و المادة النقيضة لا بد أن تكونا قد ظهرتا فى وقت واحد، و لا بد أن تتساويا تماما، بمعنى أن نصف الأجرام السماوية قد جاء و ظهر من مادة عادية و نصفها الآخر قد خلق من مادة نقيضة» .. و ذهب عالم البلازما النووية «هانز ألفين» إلى أبعد من هذا، فنشر بحثا بعنوان «نقيض المادة و الكون» شرح فيه فكرة ظهور الكون و الكون النقيض و كيف ظهرا، ثم بوعد بينهما و عزلا حتى أمكن أن يعيشا إلى اليوم المعلوم». و لا يسعنا، نحن الناظرين إلى هذه النتائج العلمية التى لا تحتاج إلى تعليق، إلا أن نردد قوله تعالى سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]، كما أننا لنتمايل طربا و نهتز نشوة عند ما نعرف أن العالم الحديث، بعلومه و معارفه و فى أدق مباحثه و نظرياته، قد اتخذ من آيات القرآن دستورا له يبنى عليه حضارته و تطلعاته و طموحاته، و يردد كما يردد كل مؤمن وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات/ ۴۹]. أيها القارئ الكريم: قل لى بربك ... من الذى علّم ذلك الأمّى فى شعاب مكة و أوديتها، من الذى علمه أسرار الكون و الحياة و الذرة و الخلية مما لم يكن الإنسان يعلمه لا بعقله الظاهر و لا بعقله الباطن، و مما لم يصل إليه و لا حام حوله ...؟ لا شك أنه اللّه، الذى خلق فسوى و الذى قدر فهدى، و إنى لعلى يقين بأنه ما من منصف يقع نظره على هذه الآية و هذه النتائج العلمية المذهلة إلا و يجد نفسه مضطرا لأن يحنى رأسه تواضعا للحقيقة، و تعظيما للخالق و اعترافا بأن هذا الكتاب المعجز ليس من قول البشر. بعد أن ينتهى الدكتور هيتو من البرهنة، فى علم الذرة و الفضاء و الفلك، على وجود الزوجية فى كل تركيباتها، و وجودها المادى، يعود للبرهنة على الزوجية فى علم الحياة، و سنحاول اختصار ما قاله فى هذا الصدد، حيث يدلل على الإعجاز القرآنى فى حديثه عن الزوجية من خلال الخلية الحية، و من خلال الزوجية فى الخلية الجنسية، و من ثم فى الكروموسومات، و من ثم فى الجينات، و من ثم فى الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۸ أشرطة الجينة الداخلية نفسها حتى يصل إلى أن كل الوجود، سواء كان ذرة مادية أو خلية حية أو كونا كاملا أو جسما كاملا، إنما يقوم على أساس الزوجية فى كل بنيانه. ففى حديثه عن الزوجية فى الخلية الجنسية كنموذج للخلية الحية عموما، يجد الدكتور هيتو أن العلم الحديث قد توصل ليس إلى الزوجية فى وجود الكائن الحى من خلال نطفة الذكر و بويضة الأنثى، كما هو معلوم فى الظاهر فقط، و إنما وصل العلم إلى أن فى كل نطفة للذكر زوجين أيضا،

ففیها نطفة ذکریة و أنثویة بنفس الوقت، فنطفة الرجل فیها الذکر و الأنثی، و حینما تلقح البویضة لدی المرأة فإن کانت الملقّحة صفات ذکریة جاء الولد الذکر منها، و إن کانت الملقحة صفات أنثویة کانت الأنثی منها، و یؤکد هذا بالآیة القرآنیة أَ یَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً (۳۶) أَ لَمْ یَکُ نُطْفَةً مِنْ مَنِیٍّ یُمْنی (۳۷) ثُمَّ کانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّی (۳۸) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی [القیامة/ ۳۶- ۳۹]، أی فجعل من نطفة الرجل الذکر و الأنثی، و تفسره الآیة الأخری وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی (۴۵) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنی [النجم/ ۴۵، ۴۶]. فالآیة صریحة فی أن الذکر و الأنثی من نطفة الرجل و منیه، و أن هذا المنی یحمل الذکور إلی جانب الإناث أزواجا أزواجا. أما الزوجیة فی الکروموسومات فیتحدث عنها العلم، کما یذکر الدکتور هیتو، من خلال عدد هذه الکروموسومات التی جمیعها زوجیا، فهی فی خلیة الإنسان فی نواتها ستة و أربعین کروموسوما، و فی البقر ستون کروموسوما، و هکذا نجد أن نوع الکائن الحی یختلف باختلاف عدد الکروموسومات فیه. و لما کانت هذه الکروموسومات دائمة الانقسام بسبب انقسام الخلیة لتعویض الجسم عن الخلایا التی تموت باستمرار، و التی تقدر بالملایین، فإن انقسامها نفسه یحمل نفس الزوجیة فی الکروموسومات الأصلیة، و أی تغیر فی عدد الکروموسومات یعنی تغیر جنس الحیوان، و حینما تنقسم هذه الکروموسومات إلی أزواجها فإن کل زوج یعطی منها زوجا آخر شبیها له مائة بالمائة استعدادا للانقسام و التکاثر، فیصیر فی الخلیة ستة و أربعون زوجا، لیعود العدد بعد الانقسام إلی ثلاثة و عشرین زوجا، و لتستمر مسیرة الحیاة و یستمر الحفاظ علی الأنواع سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ [یس/ ۳۶]. و لکن هل هذا هو کل ما فی الأمر من أسرار الأزواج؟ کلا، فحتی حینما تنقسم الخلیة الجنسیة إلی ثلاثة و عشرین زوجا، لتکون بعد التلقیح مع بویضة المرأة المنقسمة أیضا إلی ثلاثة و عشرین زوجا، لیعود العدد إلی ستة و أربعین زوجا لتکوین الإنسان ذاته، فالخلیة الجنسیة فی الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۵۹ انقسامها إلی نصف العدد الزوجی فی کل من النطفة و البویضة إنما هی أعظم دلیل علی الزوجیة حتی فی عملیة التلقیح الجنسیة. و یقول الدکتور هیتو: «و لکن أین سر الأزواج فی هذا؟ ألسنا نتکلم عن الأزواج؟ بلی .. إننا نتکلم عن الأزواج، و السر هنا یکمن فی أن الحیوان المنوی الذی یحمل، کما ذکرنا، نصف عدد الأزواج التی کانت تحملها الخلیة الجنسیة من الکروموسومات، إن هذا الحیوان عند ما یلقح البویضة فی رحم المرأة، و تتکون الخلیة الأولی، نجد أن کل کروموسوم من الکروموسومات الثلاثة و العشرین تندفع فی هذه الخلیة الجدیدة و کأنها تبحث عن شیء مفقود، و إذا بکل واحد منها یبحث عن زوجه و قرینه الذی انفصل عنه فی الخلیة الأساسیة، فإذا ما التقیا تلاصقا، کما یتم التلاصق بین کل زوجین فی حیاتنا الظاهرة، و کأن أحدهما یدلی للآخر بأسراره و یطلعه علی باطنه و یتبادل معه المعلومات السریة التی لا یعلمها إلا خالقه، و التی سیتکوّن منها المولود الجدید». علی أن الزوجیة فی العلم لم تقف عند حدود الزوجیة فی عدد الکروموسومات، بل إن العلم، بعد بحث دقیق عمیق فی هذه الکروموسومات، و بعد استخدام العلم مجاهر کبیرة للنظر إلیها، وجدها تتکون من جینات صغیرة متراصّة یبلغ عددها علی الکروموسوم الواحد عشرات الآلاف، و هی تقوم بمهمة حفظ السجلات الوراثیة للإنسان. فبناء علی هذه الجینات تتحدد صفات الإنسان و لونه و شکله و صوته و طبیعته و طوله و لون شعره و لون عینیه و کل ما یتعلق بأوصاف الإنسان، و بسبب هذه الجینات أیضا تنتقل الصفات الوراثیة من الجد إلی الآباء، و من الآباء إلی الأبناء، و اکتشف العلم أن هذه الجینات تتکوّن، هی أیضا، من أزواج و لم تأت فرادی، و لهذا کان الشبه بین الولد و أبیه، و الأب وجده من جهة، و بین والدته وجدته من جهة أخری، و حیثما تفوّقت جینة أحدهما علی الآخر ظهر التعبیر فی شبه الولد بأحدهما. إذن، حتی فی هذه الجینات وجدت الزوجیة، فلو افترضنا جدلا أن الخلیة تحتوی علی أربعین ألفا من الجینات، فمعنی هذا أن عشرین ألفا منها جاءت من الأب، و العشرین ألف الأخری جاءت من الأم، فهی تحمل عشرین ألف زوج من الجینات المشترکة التی تحمل صفات الأم و الأب معا. و لکن هل تقف الزوجیة عند هذا الحد لمعرفتنا بالجینات؟ لا. فالعلم بدأ یبحث فی سر هذه الجینة و کیفیة حفظها للصفات البشریة، بل و کیفیة التأثیر علیها، فما ذا وجد؟ وجد العلم أن الجینة الواحدة قد حملت سرا من الأسرار التی أدی اکتشافها إلی إثبات إعجاز القرآن و إظهار عظمة الخالق، إذ ثبت أنها تتکون من الأزواج أیضا، الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۰ و ذلک أن کل جینة من هذه

الجینات تعتبر معلومة مستقلة تعمل لتوریث الکائن الحی صفة محددة، و بعد التعمق فی تکوینها وجد أن هذه الجینة تتکون من شریط قد یفرد و قد یطوی، فإذا أرید من الشریط أن یقوم بمهمته و ینفذ خطته الوراثیة المرسومة له انفرد و استقام، و هو لدقته لا یکاد یری، إذ أن عرضه لا یزید عن جزءین اثنین من ملیون جزء من الملیمتر، فإذا ما انتهی من عمله طوی نفسه و عاد إلی ما کان علیه علی الکروموسوم کحبّة، أو عقدة صغیرة، لکن هذه الجینة لم تتکون من شریط واحد و إنما تبین، بالفحص و التدقیق، أنها علی هیئة شریطین اثنین یلتفّ أحدهما علی الآخر و یحتضنه کالضفائر المجدولة، و حتی هذه الضفائر کثیرا ما تأتی أزواجا علی شکل زوجین اثنین، و یلتف کل زوجین منها بالزوجین الآخرین، علی أنه قد تتکرر هذه العملیة مرة ثالثة فی زوج ثالث ... و هکذا نری أن هذا الأمر قد فاق التصوّر، و تجاوز حدود الخیال، و کأن کل شیء فی هذا الکون یقول سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ [یس/ ۳۶]. إن هذه الشرائط التی تتکون منها الجینة، و التی جاءت علی شکل شریطین مجدولین، هی التی سجلت علیها الملایین و الملایین من الصفات السریة للکائن الحی، و کأنها کلمة السر فیه، و هی التی حیّرت المفکرین و العباقرة و علماء الحیاة، فما هو سر هذه الشرائط التی سجلت علیها ملایین الصفات، و التی جاءت أزواجا، و ما هی حقیقتها، و هل هی أیضا احتوت علی سر آخر من الأزواج فی ترکیبها جاء وراء ظهورها أزواجا؟ .. الجواب نعم، و بکل تأکید طبقا لقانون اللّه الأزلی وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [الذاریات/ ۴۹] ... و هنا یصل العلم إلی خاتمة المطاف الذی ما بعده مطاف ألا و هو الزوجیة فی سر الترکیب الأساسی لأشرطة الجین الزوجیة، و هو الترکیب الأولی لوجودها الحیوی. لقد تابع العلماء جهودهم فی البحث عن حقیقة الجینة و مکوناتها إلی أن جاء العالمان (جیمس واتسون)، المتخصص فی علم البیولوجیا، و (فرنسیس کریک)، المتخصص فی علم الفیزیاء الکیمیائیة، و تمکّنا عام ۱۹۵۲ من اکتشاف حقیقة الأشرطة التی تتکوّن منها الجینة التی جاءت علی شکل أزواج علی شکل ضفائر مجدولة أو سلالم حلزونیة ذات درجات متتابعة بعضها فوق بعض، و التی تحتوی علی أسرار الحیاة بالنسبة للکائن الحی، و بهذا الکشف وضعا أیدیهما علی أعظم سر من الأسرار التی تحمل صفات هذا الکائن الحی العجیب الغریب المعجز المذهل، و استحقا بناء علی ذلک جائزة نوبل. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۱ لقد أثبت هذان العالمان أن هذه الأشرطة التی تحفظ أسرار الحیاة و الصفات الخاصة للکائن الحی، أنها تتکون من عناصر الأرض، و ذلک لأن الإنسان خلق منها، فأثبت أن هذه الأشرطة تتکون من أربعة قواعد نتروجینیة و هی: «أدنین، و جوانین و سایتوزین و ثایمین»، و لقد ذهل العلماء حینما رأوا أن هذه المرکبات قد جاءت فی کل کائن حی أزواجا، فالأدنین دائما یتزاوج مع الثائمین، و الجوانین دائما یتزاوج مع السایتوزین، و لا یمکن أبدا أن یتزاوج الأدنین مع الجوانین، و لا الجوانین مع الثائمین، و لا السایتوزین مع الأدنین، و لا الأدنین مع السایتوزین، کما لا یمکن أبدا أن تختل هذه الأزواج فی أی کائن من الکائنات الحیة و إلا کانت الکارثة الوراثیة. و لم یقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلی أن کل واحدة من هذه القواعد، الأربعة تتصل بسکر خاص اسمه (ریبوز)، و هذا السکر یتصل بجزئی من الفوسفات لیکوّن معه زوجا و لا یبتعد عنه و لا ینفصل منه، و بعد ذلک تتکرر هذه الأزواج فی جزیئاتها الوراثیة ملایین المرات، و کل واحد منها یعرف مکانه من الخلیة، کما یعرف زوجه و طبیعته و نوعه فیقترب منه و یرتبط به .. و إذا ما عرفنا أن الخلیة الواحدة من جسم الإنسان تحتوی علی ثمانیة بلایین من هذه القواعد الأربعة، و کلما ولدت خلیة جدیدة أخذت معها هذا العدد من البلایین إلا فی الخلیة الجنسیة، إذ أن الحیوان المنوی یحمل نصف هذا العدد لیلتقی مع البویضة التی تحمل نصف العدد أیضا لتتکون الخلیة الأولی، التی تحمل البلایین الثمانیة، و بعد ذلک تبدأ الأزواج من هذه القواعد الأربعة بإصدار أوامرها لتتکوّن الجینة. إذا ما عرفنا هذا أدرکنا سر الزوجیة الذی تحدّث عنه القرآن فی کل شیء. و هکذا یصل الدکتور هیتو فی نهایة فصل الزوجیة فی کل شیء هذا إلی القول «و لا یسعنا، فی نهایة المطاف فی عالم الأزواج فی الکون و الحیاة، و الذی رأینا فیه من خلال مکتشفاتنا و علومنا الحدیثة ما یدل دلالة قاطعة علی إعجاز القرآن فی مضمار الأخبار عن أسرار الخلق فی أعمق أعماقه، مما کان من المستحیل معرفته علی أهل العصر الذی نزل فیه القرآن، و مما لم یعرفه الإنسان إلا فی العصر الحدیث، مما طوّره من الوسائل البصریة و توصل إلیه من وسائل الکشف و المعرفة، لا

يسعنا إلا أن نردد قوله تعالى سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» [يس/ ۳۶]. أما النموذج الثانى الذى نأخذه فى إطار التفسير العلمى للقرآن، فهو نموذج يختلف عن النموذج الأول، فهو لا يعتبر نفسه أنه يفسر القرآن علميا، و لكنه يشير إلى ما أسماه التوافقية بين آيات القرآن و حقائق العلوم المكتشفة حديثا، كما أنه، حين الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۲ يشير إلى آيات القرآن، يستخدم كلمة دقيقة رقيقة فى التعبير إلى إشارتها للعلوم و حقائقه، يستخدم كلمة (لمسة، و لمس) و يقول «۱» «بإمكانية التقاء الحقيقة العلمية بعد صدق نظرياتها و افتراضاتها و تجاربها مع حقيقة القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم هو كتاب الكون المفتوح». إنه لا يساوى بين النظرية العلمية و الحقيقة القرآنية، لأن النظرية قد تصدق و تكذب و قد تكذب نفسها غدا، فإذا ما سئل ما النقاط التى اقترب فيها العلم بنظرياته و حقائقه من الحقيقة القرآنية؟، كان الجواب «۲» «لا نقاط اقتراب بين حقيقة القرآن و نظريات العلم، لكن هناك اقتراب و لقاء و توافقية بين حقيقة القرآن و الحقيقة العلمية». هذا النموذج أقدم تأليفا و تاريخا من النموذج الأول حيث يعود إلى عام ۱۹۸۳، أما المعجزة القرآنية فقد صدر عام ۱۹۸۹، إنه كتاب «الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن» للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر ... إن هذا الكتاب، و على الرغم من كثرة المواضيع العلمية التى طرقها و شرحها و ناقشها و أشار إلى التوافقية و اللقاء و اللمس بينها و بين آيات القرآن، لكنه يبقى كتاب هداية و إرشاد للإيمان فى هدفه الأول و الأساس، حتى يصل المؤلف فى خلاصته إلى الدعوة إلى قيام علم إيمانى جديد و شامل يبنى على الأسس و الحقائق التى أودعها اللّه فى القانون الإلهى العام الأعظم للكون و الإنسان، و يصف هذا العلم بأنه «هو منقذ البشرية من ورطتها، و هو الذى يجدد صلة الإنسان بالسماء»، كما يصفه بأنه «۳» «منهج تجريبى عملى يكشف للإنسان عن نظم الطبيعة و خواصها و أسرار النفس الإنسانية، إنه لا يتحكم بأسلوبه الموضوعى فى عقائد الناس و لكنه يدعم إيمانهم باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر». و سنحاول أن نستعرض المنهج و الأحكام التى قررها هذا الكتاب، و الأسلوب المستخدم لتعامل القرآن مع العلم فيه. يقول فى مقدمة كتابه إنه سيقدم فيه «الدلائل الملموسة على شمول القرآن و صدقه و دقته فى معالجة الموضوعات التى تخص الإنسان و الكون»، و يبرهن على ذلك من خلال عرضه للعلوم المختلفة، ثم إشارته و برهنته على سبق القرآن للمس هذه المفاهيم. إن المؤلف يستعرض الأفكار و النظريات و القوانين العلمية أولا، ثم يستعرض ما توافق منها مع القرآن أو لمسها القرآن لمسا أو التقى معها التقاء، و قد منهج الكتاب

(____ ۱) الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ص ۷۹. (۲) المصدر السابق، ص ۸۰. (۳) المصدر السابق، ص ۱۴. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۳ على أساس منهجية العلوم نفسها و أقسامها، فمثلا: بعد أن يبحث التطور البيولوجى للكائنات الحية و يصل إلى بحث أطوار تكون الجنين، كما يقول العلم و كما يذكره القرآن، يقول: «و العلم يتوافق مع القرآن فى ذلك توافقية تامة رائعة»، و أحيانا يستخدم الحديث النبوى بنفس المعنى، و فى فصل آخر بعد أن يبحث الكون و نظرياته المختلفة يقول «۱»: «و وجدت أنه كتاب اللّه المنظور الذى لا يتعارض ما فيه من آيات فى الآفاق مع كتاب اللّه المقروء (القرآن الكريم)، و اكتشفت كيف مسّ القرآن الكريم توازن الكون الأعظم مسّا رقيقا فى إشارات كونية غاية فى الدقة و الشمول و الصدق»، و لأن هدفه، كما قلنا، إيمانى إرشادى، فبعد أن يقرر الحقيقة القرآنية و توافقها مع الحقيقة العلمية نراه يقول «۲»: «و توصلت إلى التوافقية بين القرآن و الفيزياء الكونية فى تحديد خواص الدخان الكونى الأول، و وجدت خطوات البحث تقودنى منطقيا إلى اللّه خالق كل شىء و إليه المصير»، بل نراه يعقد فصلا كاملا لبحث (المفاهيم النهائية التى يمكن الخروج من الحقائق القرآنية و ما يخدمها من الآراء العلمية) .. إنه، إذن، يأخذ حقائق العلم التى تخدم حقائق القرآن، ليبرهن بعد ذلك على وحدانية اللّه فى هذا الكتاب المعجز، إنه كتاب نموذج للتعبير عن العلاقة الأساسية للعلم بالدين الإسلامى من خلال القرآن، فهو، إذن، على الطريق السوى الذى حدد شروطه التفسير العلمى للقرآن و ضوابطه لا- خارجا عنها، رغم أنه يستوعب كل مفردات العلوم، نظريات و قوانين و حقائق، و لكنه لا يفتأ أن يعود لارتباطها بالقرآن الكريم و هدايته و إرشاده و إعجازه. فبعد أن يبحث الكون، نظريات و حقائق فى ضوء الفيزياء الكونية يقرر أن توازن الكون من آيات اللّه فى

الآفاق، فیصل إلی «أن هذا الکون المعجز ببنائه المذهل، فی اتساعه الرائع، فی حرکته و اتزانه، هذا الاتزان الدقیق، لو اختل قید شعرة، منذ البدء، فی أیة جزیئة من جزئیات قوانینه، لا نفرط عقد هذا الکون و انهار کل ما فیه و من فیه». و بعد أن یستشهد بالآیات القرآنیة المعبرة عن هذه الحقیقة، بعد کل هذا نراه یقول «۳»: «لقد جاء العلم، و جاء العلماء بألف ألف دلیل علی صدق ما ورد فی القرآن الکریم، جاء بألف ألف دلیل علی وحدة الکون و السماء و الأرض و الذرة

(____۱) الإنسان فی الکون بین العلم و القرآن- د. عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ص ۱۲. (۲) المصدر السابق، ص ۱۷. (۳) المصدر السابق، ص ۱۴۱. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۴ و المجرة فی قوانین وجودها و حرکاتها، و من هذه الوحدة درج الناس و العلماء إلی وحدة الکون» .. و إنه هنا لأشبه بالفخر الرازی فی کتاب «أسرار التنزیل و أنوار التأویل» حینما تحدث عن معلومات عصره من مبدأ تکون السماوات و الأرض، و معنی الرتق، و معنی الفتق وصولا إلی الاستدلال بصفات السماوات و أحوالها علی أن لهما مدبّرا و صانعا، فهو علی خطی سلیمة من الضوابط التفسیریة التی وضعها القدماء لتفسیر القرآن، إضافة إلی التزامه بالضوابط التی وضعها المعاصرون للتفسیر العلمی. إن المؤلف یعتقد أن کل تقدّم بشری مقبل سیکون تقدما فی عقل الإنسان و ملکاته الإبداعیة، و لذا فهو یری أن «۱» «من إعجاز القرآن الکریم إشارته إلی نشأة علوم حدیثة لم یعرفها السابقون، و إنما لفت أنظارهم إلیها، کما وجه أبصارهم إلی دراسة الکون، و تأمل ظواهره و الإحاطة بآیات اللّه فیه، و قد حملت آیات القرآن بذور هذا التقدم العلمی و أرشدت إلیه و فکّت مغالیقه و ترکت للعقل البشری بعد ذلک استعمال رسالته حتی یتحقق من صواب نظریته أو خطئها»، إنه یعتقد بأن اللّه دعانا إلی الاستزادة من العلم فی قوله تعالی رَبِّ زِدْنِی عِلْماً [طه/ ۱۱۴]، لأنه سبحانه و تعالی یعلم أن علمنا لم ینته بما جاءت به الرسالات من معارف و توجیهات و إلا ما دعانا لهذه الاستزادة .. و إذا کان العلم الإنسانی یقوم علی الجواب علی کلمة کیف، فإن القرآن الکریم یدعونا دعوة واضحة، لا لبس فیها، إلی البحث فی الجواب عن هذه الکیفیة حیث یقول أ فَلا یَنْظُرُونَ إِلَی الْإِبِلِ کَیْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَی السَّماءِ کَیْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَی الْجِبالِ کَیْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَی الْأَرْضِ کَیْفَ سُطِحَتْ [الغاشیة/ ۱۷- ۲۰]، فالجواب علی هذه الکیفیة هو مجال کل العلوم المعروفة لدینا الیوم و تبحثها کل العلوم بحثا دقیقا، و لکن لما ذا دعانا القرآن لذلک؟ هل لکی نعرف العلوم و نقف عند قوانینها جامدین و نصفها وصفا لا یتجاوز البحث عما وراءها و من جعلها و من سبّبها و وضعها؟ یقول المؤلف جوابا علی ذلک «۲» «و المتأمل فی القرآن الکریم یلاحظ أن القرآن الکریم یعرض الحقائق العلمیة فی صور مختلفة تنبئ بالحکمة و الموعظة الحسنة لکی تحقق الهدف الذی ذکرت من أجله، و هو هدایة الناس إلی بارئهم فی خشوع و إکبار لصفة خالق الأکوان ذی الجلال و الإکرام».

(____۱) الإنسان فی الکون بین العلم و القرآن- د. عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ص ۱۴۸. (۲) المصدر السابق، ص ۱۵۱. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۵ إن المؤلف یبین علاقة الحقائق العلمیة و الآیات القرآنیة باعتبارها علاقة توافقیة، أو عدم تعارض الواحدة مع الأخری من خلال القرآن نفسه، فهو دعا و یدعو إلی العلم فی کل آیاته المتعلقة به، ففیه أکثر من سبعمائة و خمسین آیة، و هی أکثر من آیات الأحکام ذاتها، تعرض لمسائل علمیة بعضها عام و بعضها مفصل، و أعطی القرآن لذوی العلم موقعا متمیزا فی الدنیا و الدین، و فی معرفة اللّه، و مدحهم مدحا کبیرا حینما قال بأنهم هم الذین سیعرفون أن ما أنزل علی محمد صلّی اللّه علیه و سلّم هو الحق وَ یَرَی الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ هُوَ الْحَقَّ وَ یَهْدِی إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ [سبأ/ ۶]، فالعلم لیس خصما للإیمان، کما یقول بعض الملحدین، بل هو دلیل إلیه. و یصل المؤلف إلی التأکید علی أن العلوم الطبیعیة و الفیزیاء الکونیة هی علوم إسلامیة لأنها علوم قرآنیة فی موضوعها و فی طریقتها، و یستشهد بآیات کثیرة مما جاء من ذکر العلم فی القرآن، و یشیر أیضا إلی الدعوة لمعرفة طبیعة الشمس و القمر فی القرآن، کما قرر القرآن حقائق علمیة کثیرة تتعلق بالکون و الکائنات، بل إن القرآن دعا، کما یقول المؤلف، إلی البحث العلمی و طلب العلم، لأن المنهج العلمی کان وراء المعرفة الدقیقة للحقیقة الکونیة، و من ثم کانت هیمنة العلم علی کثیر من مظاهر

حیاتنا، و لما کان اللّه قد جعل الإنسان خلیفة فی الأرض لذا طالبه بأن یکون عالما و علیما بسنن الکون التی ستقوده إلی أن یکون قادرا و أمینا علی هذه الخلافة، و لعل دعوة القرآن للمخاطبین بما یعقلون خمسین مرة، و بما یعلمون مائة مرة، و بما یتفکرون و یتفقهون ثلاثین مرة فی القرآن دلیل واضح علی هذا الاهتمام الاستثنائی للقرآن بالعلم. کل هذا کان هو الأساس الذی بنیت علیه «حقیقة عدم تعارض القرآن مع العلم علی الإطلاق»، و لهذا فالمؤلف یؤکد أنه «ما تقدم العلم خطوة إلا و کشف عن ناحیة من نواحی الإعجاز العلمی فیه، و أضاف برهانا جدیدا یؤکد أن القرآن کتاب اللّه الذی لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ [فصلت/ ۴۲]. هکذا، إذن، یبین المؤلف قناعاته لیدلل علی الرابطة الوثیقة و الأکیدة التی تحمل آیات القرآن إلی الحقائق العلمیة، و مع هذا فنراه قلّما یستخدم کلمة إعجاز علمی إلا باستشهاداته عن الآخرین، و أحیانا کعبارة عرضیة، و إنما أکثر ما یؤکد علی کلمة التوافقیة بین القرآن و الحقیقة العلمیة، اللهم إلا إذا فهمنا هذه التوافقیة عنده هی بمعنی الإعجاز العلمی الذی نستخدمه نحن. فحینما یعقد فصلا خاصا عن هذه الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۶ التوافقیة و تحت عنوانها و یؤکد فیها «۱» «إننی أشعر کلما قرأت القرآن الکریم- بعد أربعة عشر قرنا من نزوله- أنه یتنزل الیوم، فلم أجد فیه ما یناقض (حقیقة) أثبتها العلم الحدیث، اللهمّ إلا إذا کانت هذه (الحقیقة) نفسها لا تزال أبعد ما تکون عن الحقیقة، أما الحقائق الثابتة، فإنی أری صداها فی القرآن الکریم»، و هذا ما یوجب علیه أن ینطق بکلمة معجزة علمیة إلا أنه لا یفعل ذلک إلا من خلال استشهاده بنص لمؤلف اسم کتابه «معجزة القرآن» لنعمت صدقی، فیقول «۲»: «و فی القرآن آیات أخری اکتشفت معانیها علی مر السنین، أو ما زالت تنتظر ما یجلی معانیها، و بذلک أثبت العلم الحدیث أن القرآن معجزة کل العصور الغابرة و القادمة، و العالم الذی یتضح له ذلک یقتنع بأن القرآن لم ینزل لتنفیذ تعالیمه فی زمن محدود بوقت نزوله، بل إنه الکتاب الذی یجب أن یظل (سائر المفعول) إلی آخر الزمان، و تعالیمه مناسبة لکل عصر، لأن علومه توافق کل عصر، و ما ذلک إلا لأنه من عند اللّه الذی خلق الإنسان و الذی یعلم أحواله و تطورها فی کل زمان، فأنزل ما یتضمن هدایته و مساعدته علی الخلافة فی الأرض جیلا بعد جیل، و زمانا بعد زمان». کما أن المؤلف حتی حینما یستخدم کلمة معجزة، و هی قلیلة جدا، فهو یضعها فی مقابل التوافقیة حیث یقول «۳» «فإذا اکتشف الإنسان بالعلم شیئا من تلک الحقائق الکونیة فی ذلک أیضا شیء من معجزات القرآن و معجزات الرسول الأمین محمد علیه الصلاة و السلام، و تحقیق ذلک علی أیدی علماء الجغرافیة الفلکیة المعاصرین لیس فیه، إلا أنهم جاءوا ببعض ما جاء به القرآن قبل أربعة عشر قرنا. التوافقیة- فی هذه النقطة- موجودة قائمة». إن التفسیر الذی یمکن أن یقبل من المؤلف علی ذلک لیس لعدم قناعته الأکیدة بأن الآیة و الحقیقة تتعامدان تعامدا مؤکدا، و لا شک أو ظن قد یخطر فی البال من التخوف أن تتغیر الحقیقة العلمیة فنکون قد أخطأنا بفهم الآیة، و هذا یؤکده النفس الإیمانی العمیق الذی یتکلم به المؤلف فی کافة مفرداته و تفاصیله. إن هذا الاستعمال لکلمة التوافقیة جاء کبیرا دقیقا و علمیا فی مفهوم الکاتب للتعبیر عن هذا الاتصال بین الآیة و الحقیقة العلمیة، ذلک لأن القرآن، حین ذکر الحقائق الکونیة، لم یستخدم أسلوب البشر فی هذا الإثبات، بل استخدم أسلوب الإشارة و الرمز و المجاز و الاستعارة، و بعبارات توحی أو تومض بهذه الحقیقة، فأسلوبه أدق فی التشخیص (____ ۱)

الإنسان فی الکون بین العلم و القرآن- د. عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ص ۱۷۱. (۲) المصدر السابق، ص ۱۷۳. (۳) المصدر السابق، ص ۱۷۷. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۷ من استعمال عبارة المعجزة باستخدام التوافق، یقول فی هذا «۱» «إن القرآن الکریم قد عرض کثیرا من الحقائق الکونیة، و لکنه عند ما یعرض أی قضیة من قضایا الکون العلمیة لا یعرضها بأسالیب البشر کاستعمال المقدمات- الدلائل، المعادلات- استنباط النتائج و إنما یقدمها بالإشارة أو الرمز أو المجاز أو الاستعارة أو بالعبارات التی تومض فی العقل بنور روحی باهر»، و هذا یعود إلی طبیعة الأسلوب القرآنی نفسه، و إلی أن هذه الحقائق سوف لا تدرک کاملة فی عصرها و إنما ستأتی عصور لاحقة تتطور العلوم و المفاهیم خلالها فیستطیع الإنسان فهمها کما أراد اللّه لها، و إلا فما معنی أن ینزّل اللّه قوانین و حقائق لا یستوعبها أهل عصرها، و تکون علیه أشبه بالظلمات الغامضة، فاتجه الأسلوب القرآنی إلی الرمز و التشبیه و

غیرها من الأسالیب، و ربطها بالحکمة و الإرشاد و الهدایة لکی تؤدی غرضین فی وقت واحد، غرض یستفید منه القدماء الذین نزلت الآیة فی وقتهم و ما بعدهم بقلیل، و غرض یستفید منه اللاحقون بعد تقدم العلوم و انکشاف الغطاء عن الحقائق الکونیة الجدیدة. فعظمة القرآن هنا تظهر فی مخاطبته لجهتین بنفس الأسلوب و المفردات، و لکن کل منهم یفهم معانی أعمق من الآخر، و لکن الهدایة واحدة للاثنین و الإرشاد متساوی عند الطرفین، و فی ذلک یقول المؤلف «۲» «إن اللّه سبحانه و تعالی ینزل آیات، قد لا یدرکها أو یفهم حقیقتها و أسرارها فی وقت نزولها کل المعاصرین لها، لأن العلم بقوانین الکون کان محدود الآفاق آنذاک، و لکن اللّه سبحانه و تعالی یعلم أن المستقبل سوف یأتی بفرص مناسبة لتوسیع مدلول الآیات الکریمة بما یخدم الإنسان و یرسخ حرکته فی الکون و الحیاة، و یحقق الخلافة فی الأرض لبنی الإنسان، قال تعالی سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت/ ۵۳]، و لا شک أن هذه معجزة ما بعدها معجزة ..». ینتهی المؤلف بالدعوة إلی منهج إیمانی علمی معتمدا علی أن «۳» «المنهج الإیمانی للدراسات الجغرافیة فی القرآن و السنّة لا یجد غرابة و لا عجبا أن یأتی القرآن، و هو المعجزة الکبری، بتلک الموافقات و المطابقات لکل ما وصلت إلیه العلوم الحدیثة من نتائج، و وصل إلیها العلماء بعد مئات السنین من الدراسة و البحث و التأمل، لأن العلم و الدین فی الإسلام شیء واحد، فالعلم یصل بک إلی الدین، و الدین یصل بک إلی العلم، و المنهج الإیمانی قبل کل شیء یؤکد بطریقة علمیة أن (______________________________ ۱)

الإنسان فی الکون بین العلم و القرآن- د. عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ص ۲۲۲. (۲) المصدر السابق، ص ۲۲۲. (۳) المصدر السابق، ص ۲۶۷. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۸ اللّه هو خالق الکون، و هو المهیمن علی قوانین الحرکة فیه بإرادته، و هو فی کل ذلک رحمن رحیم، و تجب عبادته و العمل بشریعته، و أنه سبحانه و تعالی نظم هذا الکون علی أسس و قوانین و سنن غایة فی الحکمة و الشمولیة و الدقة، یقول سبحانه و تعالی وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً [الفرقان/ ۲]». و لو أخذنا مثلا تطبیقیا لمنهج الدکتور عبد العلیم عبد الرحمن خضر، فی التوافقیة بین آیات القرآن و مفردات العلم و اکتشافاته، لوجدنا مصداقا واقعیا لهذا النهج الدقیق، و سنحاول أن نقتطع فقرات من فصول مختلفة من کتابه لإیضاح و جهة النظر هذه. ففی الفصل السادس، و الذی عنوانه (السنن الکونیة و قوانین الفطرة بین البحث العلمی و القرآن) یبدأ فیه بفقرة تحت عنوان (کیف یسیر الکون) یقول فیه الدکتور: نبّه القرآن الکریم إلی أن الکون کله یسوده نظام محکم وفق سنن إلهیة یسیر الکون بمقتضاها، و قوانین لا تفاوت فیها و لا نقص، فیقول سبحانه عز من قائل: الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَری فِی خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَری مِنْ فُطُورٍ (۳) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ کَرَّتَیْنِ یَنْقَلِبْ إِلَیْکَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِیرٌ [الملک/ ۳، ۴]، و قد خلق اللّه کل شیء فی هذا الکون بقدر، أی بتقدیر کمی و زمانی وفق ماهیة سابقة، و إن شئت قلت حدّده و أعطاه أو صافه حسب قوانین الفطرة و سنن الکون الشاملة، و جعل له رتبة وجودیة معینة. فمثلا وضع الخالق الأعظم کل موارد الثروة الاقتصادیة فی الأرض حسب سنن کونیة تحقق التوازن فی الأرض، قال تعالی وَ قَدَّرَ فِیها أَقْواتَها [فصلت/ ۱۰]، أی إن من سنن اللّه فی الکون أن یکون کل شیء فیه برتبة واحدة، فمعنی قضی و قدّر: حکم و رتّب، و معنی القضاء و القدر حکم اللّه تعالی فی شیء ما أن یسیر علی سنة ما و لأجل ما، و الآیات الکریمة تدلّ علی وجود سنن إلهیة دقیقة، و علی أساسها تم تقدیر المخلوقات تقدیرا کمیّا خاضعا للقیاس و النظام الدقیق، و تتضح تلک المفاهیم فی قوله تعالی وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً [الفرقان/ ۲]. و من تلک التقدیرات الإلهیة التی تفلسف سنن الکون و قوانین الفطرة تحدید مسار الشمس و حرکتها و فلک القمر و مناطق منازله، یتضح ذلک فی قوله تعالی وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّی عادَ کَالْعُرْجُونِ الْقَدِیمِ [یس/ ۳۸، ۳۹]، و نحن بذلک نرجع بقوانین الکون و الفطرة إلی أبسط قواعد الدین الفطری الذی هو الإسلام و الذی من أصوله: أن لهذا الکون الباهر البدیع غیر المتنافر صانعا حکیما لا تدرکه الأبصار، خلق کل شیء الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶۹ فقدّره تقدیرا، و قد رأینا أن منهج القرآن، فی تناول الظواهر الکونیة، هو الإشارة المجملة إلی بعض الظواهر، و ما أشبهها، ثم جاء العلم الحدیث فکشف کثیرا من الأسرار التی أجمل القرآن الحدیث عنها، و جمیعها یدلّ علی دقة السنن

الإلهیة التی وصفها اللّه لتسییر هذه الظواهر فی الکون و الحیاة. و من ذلک مثلا قوله تعالی وَ اللَّهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیاحَ فَتُثِیرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلی بَلَدٍ مَیِّتٍ [فاطر/ ۹]، و منها نفهم أن الخالق الأعظم قد وضع لنزول المطر قوانین خاصة و جعل للریاح فیها دورا خاصا، بحمل السحب و إثارة الشحنات الکهربائیة المختلفة فتلاقحها ببعض، أو بذرات الغبار لیتکثف بخار الماء و لکنه لا ینزل إلا حسب القانون الإلهی الخاص بتوزیع المطر علی الأرض، فتذهب السحب إلی البلد المیت (مناطق الجفاف) فیسقط المطر و تزدهر الحیاة، و قد وضع الخالق الأعظم للکائنات نظاما خاصا فی المعیشة یسمی نظام المعیشة التعاونیة لتسهیل أسباب الحیاة، قال تعالی وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ یَطِیرُ بِجَناحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُکُمْ [الأنعام/ ۳۸]. و جاءت السنن الکونیة فی تصنیف الکائنات الحیة، حسب أنماط حیاتها فی منتهی الدقة، فی ذلک یقول القرآن مشیرا إلی قانون شامل مؤداه أن کل المخلوقات الحیة خلقت أساسا من الماء وَ اللَّهُ خَلَقَ کُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی رِجْلَیْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی أَرْبَعٍ یَخْلُقُ اللَّهُ ما یَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ [النور/ ۴۵]. و قد وضع الخالق الأعظم قانونا ینطبق علی کوکبنا الأرضی یختص بتوزیع الضیاء و الظلام و علاقتهما بالحیاة البشریة، و دور کل من الشمس و القمر فی ذلک، قال تعالی: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّیْلَ سَکَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ [الأنعام/ ۹۶]. و من أمثلة السنن الکونیة العظیمة، التی توصل إلیها العلم أخیرا، قانون استقرار الأرض و توازنها، و ما تبع ذلک من قوانین الفطرة التی یخضع لها نظام الأرض لتکون صالحة للحیاة، و لکن أکثر الناس لا یعلمون ما فی الأرض من سنن کونیة عظیمة، یقول سبحانه و تعالی: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِیَ وَ جَعَلَ بَیْنَ الْبَحْرَیْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ [النمل/ ۶۱]. و تشیر الآیة الکریمة إلی الاستقرار العام الذی تتسم به القشرة الأرضیة حالیا، لأنها، قبل نشأة الحیاة علیها، لم تکن مستقرة فی عصورها الأولی قبل أن تبرد، و إذا کان استقرار الأرض لا یتصف بالشمولیة المطلقة، علی اعتبار وجود مناطق نشطة بالزلازل و البراکین بشکل متقطع، فإنما ذلک لإحداث التوازن للأرض من جهة، و من جهة أخری لتنبیه البشر إلی قدرة اللّه سبحانه و تعالی و أخذه الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۰ بناصیة الأرض و کل من علیها، شأنها فی ذلک شأن جمیع أجرام الکون. کما تشیر الآیة الکریمة إلی قانون من قوانین الفطرة التی تشملها سنن اللّه الکونیة، و هو قانون التوتر السطحی الذی یخضع له الماء، سواء العذب منه أو المالح، بحیث لا یختلط أحدهما بالآخر عند لقاء الأنهار بالبحار و المحیطات، و تتلخص تلک الظاهرة فی عدم الاختلاط الفوری لمیاه البحر المالحة بالمیاه العذبة للأنهار الکبیرة ... کما نجد قانون الفطرة الخاص بتولد الرعد و البرق فی السماء، یخضع الظاهرة لما یسمی بالکهربائیة الکونیة التی تتولد من احتکاک السحاب، یقول سبحانه جلّ من قائل علیما هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ [الرعد/ ۱۲]، و یقول سبحانه و تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُزْجِی سَحاباً ثُمَّ یُؤَلِّفُ بَیْنَهُ ثُمَّ یَجْعَلُهُ رُکاماً فَتَرَی الْوَدْقَ یَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِیها مِنْ بَرَدٍ فَیُصِیبُ بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ یَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ یَشاءُ یَکادُ سَنا بَرْقِهِ یَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ [النور/ ۴۳]، إنها سنن اللّه الکونیة التی أودعها فی هذا الکون الکبیر لیسیر کل شیء فیه وفق تخطیط مسبق و إرادة إلهیة علیا منظمة، و انسجام کامل فی کل الموجودات. فکل شیء فی هذا الکون الفسیح من الذرة و المجرات العملاقة یسیر وفق هندسة إلهیة و تقدیر محکم و نظام دقیق. فالذرة المتناهیة فی الصغر عالم هائل فیه هندسة و حرکة و قوانین و طاقة، و کل شیء فیها یسیر وفق تقدیر مطلق الدقة». و بعد أن ینتهی الدکتور عبد العلیم من حدیثه عن کیفیة سیر الکون و الدقة و التوازن الذی یحکمه، یأتی فی فصل آخر بعنوان (النسبیة فی قوانین الحرکة الکونیة بین المفهوم العلمی و منهج القرآن)، و فی فقرة (قوانین الدینامیکا الحراریة و نهایة الکون) لیقول فیها «إن هذا الکون کانت له بدایة هی الدخان ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ [فصلت/ ۱۱]، و لم یکن أزلیا و لن یکون بصورته هذه أبدیا، فلا بد أن سیکون له یوم تکون فیه النهایة، لأن قوانین الدینامیکا الحراریة و الطاقة المتاحة یؤکدان أن الحرارة تنتقل دائما من وجود حراری إلی وجود غیر حراری، و باستمرار هذا العملیة لا بد أن یأتی وقت تتساوی فیه حرارة جمیع الموجودات فتنتهی کل العملیات الکیمیائیة و الطبیعیة، و بانتهائها تنتهی الحیاة تلقائیا علی أرضنا و ما یشبهها من کواکب الأکوان البعیدة. و هذا الکون العظیم المعجزة فی بنائه، المذهل فی اتساعه، الرائع فی حرکته و اتزانه، هذا الاتزان الدقیق الذی

لو اختل شعرة، فی أمر من أموره، لا نفرط عقد هذا الکون و انهار کل ما فیه و من فیه، و لمّا کان هذا الکون منذ ملایین السنین یسیر علی نفس السنن فإن الذی یصونه مما قد یتعرّض له من کوارث هو اللّه، هو اللّه الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۱ الذی لو رفع عنا حمایته برهة من زمن لهلکنا و هلک کل من معنا، هو اللّه الذی جعل أرضنا فی هذا الموقع الممتاز الذی یقدر بعده بحوالی ۹۳ ملیون میل من الشمس، و لو کان قد جعلها ضعف بعدها الحالی من الشمس لنقصت کمیة الحرارة التی تصلنا إلی ربع کمیتها الحالیة، أی إن الحیاة کانت تقتصر علی شریط ضیق فقط حول خط الاستواء الذی تصیر درجة حرارة المناطق المحیطة به حوالی ۱۲ م فقط طول العام، و تهلک الحیاة فوق باقی أجزاء الکوکب ... هذا طبعا إذا لم نأخذ فی الاعتبار مسائل أخری. إن مجرد ابتعاد الأرض عن الشمس بحوالی ۱۸۶ ملیون میل فقط أمر یجعل الأرض تقطع دورتها حول الشمس فی وقت أطول مما یترتب علیه طول فترة الشتاء إلی ما یزید عن زمن یساوی السنة التی نعرفها الآن، و هی ظروف یستحیل معها بقاء صور الحیاة فوق الکوکب، و هو اللّه الذی جعل أرضنا فی هذا الموقع الممتاز الذی لو کان أقل من ذلک، النصف مثلا [(۵، ۴۶) ملیون میل]، لصارت سرعة الأرض أعظم و حرارتها أشد، حتی تتبخر المیاه فی نخاع جمیع الکائنات فوقها، و لاندلعت الحرائق فی کل شبر منها، و لأصبحت مثل الکوکب عطارد تماما، و هو اللّه الذی جعل أرضنا فی مثل هذا الحجم المثالی، و لو کان قد أراد لأرضنا غیر ذلک- حسب مشیئته تعالی- کأن تکون فی مثل ۴/ ۱ حجمها الحالی لما أمکن أن تحتفظ بغلافها الجوی الذی لولاه لانعدمت الحیاة بسبب غیاب عنصر الأوکسجین، و تنعدم النباتات لانعدام المیاه، و ینعدم ظهور الشفق قبل الغروب و بعد الغروب، و یهجم الظلام علی ضوء النهار فجأة، کما یطلع النهار و یتبدد الظلام فجأة، و یصبح الفرق فی درجة حرارة سطح الأرض لیلا و نهارا فرقا کبیرا قد یبلغ مئات الدرجات، و تصبح الأرض معرضة لمزید من الأشعة الکونیة القاتلة لکل شیء فی طریقها، و یصبح انتقال الصوت من مکان لآخر صعبا، و تنعدم السحب، و تختفی الأمطار، و تجف الأنهار، و تسودّ صفحة السماء بعد زرقة، و تظهر النجوم نهارا کظهورها لیلا، و کل ذلک یذکرنا بهول یوم القیامة حیث یقول سبحانه و تعالی کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ (۲۶) وَ یَبْقی وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ (۲۷) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ [الرحمن/ ۲۶- ۲۸]، و لا- یملک التعبیر البشری أن یصور الموقف، و لا یملک أن یزید شیئا علی النص القرآنی الذی یسکب فی الجوانح السکون الخاشع و الجلال الغامر و الصمت الرهیب، الصمت الذی یرسم مشهد الفناء الخاوی، و سکون الموت بلا حرکة فی جنبات الکون الذی کان حافلا بالحرکة و الحیاة، کل شیء سیتغیر یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۲ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ [إبراهیم/ ۴۸]، و نحن لا ندری کیف سیتم هذا و لا طبیعة الأرض الجدیدة و طبیعة السماوات، و لا مکانها و لکن النص یلقی الظلال، ظلال القدرة التی تبدل الأرض و تبدل السماوات، و تبعث الارتجاج و الهلع فی الأرض کما یقول سبحانه یَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ کانَتِ الْجِبالُ کَثِیباً مَهِیلًا [المزمل/ ۱۴]، القدرة التی تجعل السماء تنفطر و الکواکب تنتثر و البحار تفجر و القبور تبعثر، القدرة التی تجعل الجبال تسیر و الأرض تمید وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَی الْأَرْضَ بارِزَةً [الکهف/ ۴۷]. وَ إِذَا الْجِبالُ سُیِّرَتْ [التکویر/ ۳]. کل ذلک آیات علی قدرة الخالق جل و علا، فتبارک اللّه أحسن الخالقین ... و إلیه ترجعون». و فی فقرة ثانیة من نفس الفصل، و تحت عنوان (هل تشتعل البحار)؟ یقول الدکتور عبد العلیم مفسرا آیة وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ [التکویر/ ۶] «إن تفجیر البحار یحتمل أن یکون هو امتلاؤها و غمرها للیابسة و طغیانها علی الأنهار، کما یحتمل أن یکون هو تفجیر مائها إلی عنصریه الأوکسجین و الهیدروجین، فتتحول میاهها إلی هذین الغازین کما کانت قبل أن یأذن اللّه بتجمیعهما، و تکوین البحار منهما، کذلک یحتمل أن یکون هو تفجیر ذرات هذین الغازین، کما یقع فی تفجیر القنابل الذریة و الهیدروجینیة الیوم، و قد أمکن الیوم فصل ذرة الأوکسجین عن ذرتی الهیدروجین التی یتکون من ثلاثتها الماء، و علوم البحار توصلت الآن إلی أنه یقع فی أعماق المحیطات السحیقة هیدروجین طلیق یتکون من ذرات ثقیلة، و من الممکن تحطیم إحدی هذه الذرات بفعل ضغط کهربی من صاعقة مثلا، أو بفعل حرارة هائلة تندلع بصورة مفاجأة من باطن الأرض الملتهب عبر شق یحدثه انکسار فی صخور القاع الناریة، و من المعروف أن ذرة الهیدروجین تشتمل علی نواة تتکون من بروتون واحد (لا- یوجد هنا نیوترونات)، و یدور حولها إلکترون، و یقع هذا المدار فی

مستوی الطاقة الأولی أو فی السماء الأولی الأقرب إلی النواة، و الوزن الذری للهیدروجین ۰۰۸، ۱ و العدد الذری ۰۱، و حین یبدأ اشتعال الهیدروجین الموجود فی الماء عند قیعان المحیطات، من جراء زلزال کبیر أو برکان عظیم، تنطلق منه کمیات هائلة من الطاقة الإشعاعیة، و لن تکون من النوع الذی نراه فی موقد أو فی کوم من ما أشارت إلیه الآیة الکریمة التی سبقت عصر العلم بألف و أربعمائة سنة، و التی تقول وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ [التکویر/ ۶]. و بذلک یثبت العلم أن ما جاء بالآیة الشریفة هی الحقائق التی وصل إلیها العلماء فقط عند ما حان أمر اللّه بالسماح للإنسان أن یکشف شیئا من ستار المجهول تحقیقا الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۳ لوعده سبحانه و تعالی: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ [فصلت/ ۵۳]، و بعض المفسرین یری فی معنی قوله تعالی: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ أی غاض ماؤها، و ملئت بالنار بدل الماء، و لا غرابة، فباطن الأرض شدید الحرارة جدا بدلیل البراکین التی تخرج منه، و لیس ببعید عند ما تأتی النهایة أن تتشقق الأرض و یغیض الماء لتبخره فی الجو بردا، و یمتلئ البحر بالنار التی تخرج من باطن الأرض». أما النموذج الثالث لتفسیر القرآن تفسیرا علمیا فإنه مع تصورات الأقدمین، التی ذکرناها، من أن القرآن فیه کل علم و کل معرفة حتی عدّوا العلوم بسبعین ألف علم و أکثر، و ما ذکره ابن مسعود أن فیه علم الأولین و الآخرین، و ما ذکره الغزالی عن أن تحت کل کلمة من کلمات القرآن علم، لأن القرآن یتحدث عن صفات اللّه و أفعاله، و الکون هو من خلق اللّه و أفعاله، و ما ذکره ابن مجاهد أنه ما من شیء فی العالم إلا- و هو فی کتاب اللّه، و ما قاله ابن أبی الفضل المرسی من أن القرآن جمع علوم الأولین و الآخرین، بل و یستشهد السیوطی لأبی البکر بن عربی من أن القرآن فیه علوم علی عدد کلمات القرآن مضروبة فی أربعة، لأن لکل کلمة ظهر و بطن و حد و مطلع، عدا ترتیبها و الروابط بینها، و هذا مما لا یحصی و لا یعلمه إلا اللّه، بل و یعتبر بعض القدماء أن حدود علم اللّه لا نهایة لها، مستشهدین بقوله تعالی فی القرآن وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷] قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِماتُ رَبِّی وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً [الکهف/ ۱۰۹] و آخر من قال به، بهذا المعنی، الفخر الرازی الذی قال «۱»: «ما من حرف و لا حرکة فی القرآن إلا و فیه فائدة، ثم إن العقول البشریة تدرک بعضها و لا- تصل أکثرها و ما أوتی البشر من العلم إلا قلیلا». یلتقی هذا النموذج الثالث مع جمیع هذه الأوصاف للقرآن و یحاول البرهنة علیها بکتاب کامل اسمه (القرآن تفسیر الکون و الحیاة) للأستاذ محمد العفیفی، أی أن هذا الکتاب یحقق و یؤمن بأن القرآن فیه تفسیر کل شیء، و فیه الحقیقة المطلقة، و فیه الثبات الحقیقی فی الحیاة، و هو التطابق بین کلمات القرآن و بین تغیرات الحیاة و مکتشفات العلم، و یعتبر أن القرآن یقول الفصل فی کل شیء لأن فیه علم کل شیء، و یؤکد علی أن فی العالم کتابا واحدا قدم للناس جمیعا حقائق العلم قبل أن تثبت فی معارک العلاقات بین الوعی البشری و بین مادة الکون، و یقول بأن القرآن،

(____ ۱) الإنسان فی الکون بین العلم و القرآن- د. عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ص ۲۲۲. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۴ بصفته کلام اللّه تعالی، هو الیقین الوحید فی عالمنا الذی تختلف مادته و لا تتفق بغیر قدرة اللّه، و یری بأن الحق هو ظهیر الکلمة، فإن عبدنا الحق صدقت کلماتنا، و إن أخضعنا کلماتنا لکلمات اللّه فزنا بالعلم کله، بل إنه یصر علی أن القرآن، حقا، هو تفسیر الحیاة، و لا یمکن أن یکون للحیاة تفسیر غیر القرآن، و یقصد بالحیاة الکون و الوجود کله، و یشیر بتعبیر آخر إلی أن القرآن هو التفسیر للیقین الوحید المطلق لکل شیء فی الحیاة فی شمولها و تفصیلها، و أن سائر علوم الحیاة و سائر بحوثنا فی صحیح المادة إنما هو أمر سبقنا القرآن إلی بیانه، و دعانا إلی معرفته، و أن علماء العالم لو اجتمعوا کلهم علی الآیات القرآنیة الکونیة لاکتشفوا سبق القرآن للوعی البشری إلی اکتشاف کل الحقائق، ثم یفسر قوله بأن العلم الذی أنزله اللّه تعالی علی رسوله فی القرآن هو علم الصلة بین کل شیء و کل شیء من طریق تفصیل الحیاة بالخلق و تفصیل القرآن بالأمر. و هکذا ینتهی إلی القول بأن صلة الوعی البشری بالحیاة کلها احتمالات و تغیرات و مفاجآت و انقطاع عن العلم الحقیقی، و لو لا القرآن، الذی أعان الوعی البشری علی اکتشاف العلوم، لبقی الإنسان فی حیرة من أمره. ثم یختم تصوراته بأن الإیمان هو أعلی درجات العلم، و أنه لا- علم البتة إلا- و هو الإیمان، لأن عمل الإنسان إذا انقطع إلی نفسه فهو احتمالات فی

احتمالات فی حین أن الیقین و الثبات لا یکونا إلا بارتباط هذا العمل بالحقیقة، و الحقیقة هی فی کلام اللّه «۱» «إن العمل الإنسانی متحقق حقه فی البقاء إن کان عملا إنسانیا صالحا، و اللّه هو الذی یحقه، فبقاؤه إنما یتم بإحقاق اللّه له»، و یقول: لا وجود و لا عمل- للإنسان- بغیر خلق اللّه للإنسان و لمادة الحیاة، ثم یعمل الإنسان عملا احتمالیا لا یتحقق إلا بالحق، و الحق هو اللّه، و الحق یهدی إلی الحق، أی أن التزام الحق فی العمل یحقق احتمالیته، فیجعلها متحققة بالحق أو باطلة بإبطال الحق لها، فالاحتمال فی حدود عمل الإنسان و الیقین هو خلق اللّه وَ اللَّهُ خَلَقَکُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ [الصافات/ ۹۶]، و یصل إلی إثبات أن القیمة الحقیقیة هی عبادة کل شیء للّه، و أن القرآن هو التفسیر الحقیقی لکل أحوال الحیاة لأن القرآن مفصل تفصیلا مطلقا بینما الحیاة مختلفة. إذن، فهذا النموذج فی التفسیر للقرآن یعطی کل کلمات المبالغة عن القرآن حقیقتها فی القرن العشرین، بعد أن أعطاها القدماء حقیقتها حینما جعلوا کل العلوم تصب و تنبع (______________________________ ۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاة- محمّد العفیفی، ص ۹۷. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۵ من القرآن مهما کانت بعیدة، و لکن الملاحظة الذکیة الأولی التی یبدأ بها المؤلف کتابه، و هو یحتاط لتعلیمات کلماته کی لا یساء فهمها، هی تأکیده فی أول عبارة من کتابه علی توضیح ضروری جدا لفهم أفکاره فهما سلیما حیث یقول «۱» «من حقیقة القرآن أن فیه تفصیل کل شیء ... و أول ما یتعثر فیه الوعی البشری، و هو یحاول فهم أن القرآن فیه تفصیل کل شیء، أن یظن أن القرآن فیه تفصیل مادة الحیاة بذاتها ... حتی لقد ظن بعض الناس أن القرآن فیه ذکر أجزاء المادة، أو تفصیلات المعادلات الریاضیة أو الکیمیائیة، إلی غیر ذلک من تفصیلات الوقائع المادیة ذاتها ... و لیس فی ذلک شیء من الصواب، و أن القرآن لهو أعظم و أعلی قدرا من أن یکون ضمن محتویات الحیاة المادیة. إن القرآن کلام اللّه، فهو، کما سنری، فوق الحیاة و لیس ضمن محتویاتها، القرآن فیه تفصیل کل شیء، حیث هو مهیمن علی تفصیلات المادة بتفصیلات الحقیقة المحیطة بسائر علاقات الأشیاء بعضها ببعض، فالخلق، أی أجزاء الأحیاء و الأشیاء فی رحاب الکون، لا بد له من علاقة بالخلق، و الإنسان، و هو یبحث فی حقائق الکتل المادیة، لا بد له من حساب فی علاقته هو نفسه بهذه الکتل المادیة، الإنسان و مرائیه و مشاهداته بحاجة إلی علاقة ثالثة، إلی ضلع ثالث، یکمل مثلث الإنسان و الأشیاء بضلعهما الثالث و هو الأخلاق أو مراقبة المجتمع الإنسانی له»، علما أن الأخلاق عنده لیست بالمعنی المباشر المعروف و إنما هو یبنیها علی أساس نوع السلوک الإنسانی تجاه علاقة الإنسان بالأشیاء بعد إدراکها له بشکل معین، فیقول «۲» «إذا کانت المادة تتحول إلی طاقة، و الطاقة تتحوّل إلی مادة، و کما هی حقیقة حیاتنا التی نحیاها، فإن سائر المنتجات المادیة تتحول إلی أخلاق، أی إلی لحظة التصرّف فی المنتجات، و قد یکون التصرّف أمینا صادقا یعطی کل ذی حق حقه، و قد یحدث عکس ذلک تماما، و علی ذلک، فالعالم کله بحاجة إلی هذا الاکتشاف الضخم فی کلمات القرآن لأنها تحقق ذلک کله، و تعطی کل مرحلة منه حقها الواضح الذی یربط بین المادة و الأخلاق ربطا عضویا لا شک فیه، کما حدد القرآن لکل کلمة من کلماته قیمة یقینیة هی أعز من حقائق العلم التطبیقیة نفسها». فکیف بنی هذا المؤلف منهجه فی الکتاب؟ و ما هی الأسس التی اعتمد علیها فی إثبات هذه الفروض التی طرحها فیه؟ و من ثم حکمه علی الإعجاز العلمی للقرآن، و ما هی المساحة التی أعطاها له؟ (______________________________ ۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاة- محمّد العفیفی، ص ۷. (۲) المصدر السابق، ص ۵۰. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۶ یبدأ المؤلف تحدید منهجه فی الکتاب فی الفصل الأول، الذی أعطاه عنوان (و تفصیل کل شیء)، منطلقا من أن حقیقة القرآن أن فیه تفصیل کل شیء، لا بمعنی تفصیلات المادة و جزئیاتها و معادلاتها و کیمیائیتها و إنما بمعنی أن کلام اللّه الشامل المهیمن علی تفصیلات المادة بتفصیلات الحقیقة المحیطة بسائر علاقات الأشیاء بعضها ببعض، أی أن الحقائق الفکریة الشاملة فی القرآن تحکم الوقائع المادیة الکثیرة فی الحیاة، و الحقیقة القرآن ثابتة لا تتغیر، فی حین أن وقائع الحیاة المادیة تحکمها التغیرات و التضاد و الاتصال، لذا فإن الحقیقة القرآنیة هی فوق الوقائع المادیة و تحکم حرکتها و تغیرها و تضادها بمقولتها الفکریة، و لهذا فهی فوق الحیاة، و تهیمن علی تفاصیلها، و لو

کانت ضمن الحیاهٔ لشملتها صفهٔ الحیاهٔ التی هی التغیر- کما هو الحال مع کلام البشر- الذی یتغیر مع الحیاهٔ لیلا حق ظواهرها و لأنه منها و ضمنها، و یدلّ علی هذا أن الحقیقهٔ المطلقهٔ الثابتهٔ التی لا تتغیر هی کلمات القرآن وحده، فی حین جمیع حقائق البشر المکتشفهٔ هی نسبیهٔ و احتمالیهٔ و قد تتغیر مع کل جدید و علم جدید. إن کلمهٔ «و تفصیل کل شیء» القرآنیهٔ یفهمها المؤلف فهما شاملا، فهی بمعنی أن الحیاهٔ لمّا کانت مفصّلهٔ فی مفرداتها تفصیلا دقیقا و فی کل مفرداتها، لذا فإن کلمات القرآن المعبرهٔ عن هذه التفصیلات المتکاثرهٔ بتفصیل یطابقها مطابقهٔ الحقیقهٔ للواقع، و یعتبر أن التفصیل القرآنی هو معجزهٔ لکلمات القرآن و آیاته جمیعا، و أی کلمهٔ قرآنیهٔ وردت مرهٔ واحدهٔ فیجب أن یکون واقعها المادی واحدا أیضا، و إذا وردت أکثر من مرهٔ کان واقعها معها یتناسب و یتناظر مع العلاقهٔ بین الکلمهٔ و علاقاتها فی الجملهٔ الکلامیهٔ، و تشابک علاقات الواقعهٔ أو المعنی المادی المشیرهٔ إلیه فی واقع الحیاهٔ و تشابکاتها. و لذا یصف الکاتب هذا التفصیل المعجزهٔ بقوله بأنه «۱» «تفصیل مطلق شامل، یتّصل بکلمات القرآن جمیعا، کما یتصل بمواضع الخضوع لها فی وقائع الحیاهٔ، سواء کانت وقائع فکریهٔ أو عملیهٔ فی المجتمع الإنسانی، أو فی رحاب الکون المادی نفسه» .. إن کلمهٔ «تفصیل» وردت فی القرآن مرتین، کما یقول المؤلف، وردت فی سورهٔ الأعراف فی قوله تعالی وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِکِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلی عِلْمٍ هُدیً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ (______________________ ۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاهٔ- محمّد العفیفی، ص ۱۶. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۷ یُؤْمِنُونَ [الأعراف/ ۵۲]، و وردت فی سورهٔ الإسراء بقوله تعالی وَ یَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَیْرِ وَ کانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا (۱۱) وَ جَعَلْنَا اللَّیْلَ وَ النَّهارَ آیَتَیْنِ فَمَحَوْنا آیَهَ اللَّیْلِ وَ جَعَلْنا آیَهَ النَّهارِ مُبْصِرَهً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّکُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ وَ کُلَّ شَیْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِیلًا [الإسراء/ ۱۱، ۱۲]، و یقول المؤلف معلقا «۱»: «سنحاول أن نربط بین التفصیلین: تفصیل القرآن، و هیمنهٔ تفصیله علی تفصیل کل شیء، من ظواهر العلاقات بین الوعی البشری و بین المسیرهٔ الکونیهٔ، بلیلها و نهارها و ما یتبع ذلک من عدد السنین و الحساب، أی أبعاد التاریخ و سائر معادلات الریاضهٔ و العلم و الأخلاق». و أول شیء نواجهه فی عصرنا، عصر العقول الألکترونیهٔ، إن التفصیل فیه یقوم علی تفصیل مقادیر معینهٔ أو إحصاءات محدّدهٔ لتقییم الاحتیاجات وفق خطهٔ مقررهٔ أو خطهٔ للمستقبل القریب أو البعید، و لکن هذه الخطهٔ أو تلک- کما یقول- لا یمکن أن تکون یقینیهٔ فی حکمها لوقائع الحیاهٔ، حیث التغیرات المجهولهٔ تواجه التخطیط بما لم یکن بالحسبان «أما القرآن فهو مفصّل الکلمات تفصیلا مطلقا یحکم أحوال الحیاهٔ کلها جملهٔ و تفصیلا، حکما مطلقا مهما تختلف أحوال الحیاهٔ»، و هو یقصد بالتفصیل المطلق لکلمات القرآن «أن کل کلمهٔ من کلمات القرآن، و هی تتعدد مواقعها فی آیاتها، فهی مفصلهٔ تفصیلا مطلقا، إذ هی ثابتهٔ فی بنائها القولی، ثابتهٔ فی حقیقتها المرتبطهٔ بها وحدها». و هو یری «۲» «إن لکل موقع قرآنی، بکل کلمهٔ قرآنیهٔ، حقیقهٔ خاصهٔ به فی موقع الکلمهٔ منه حقیقهٔ لا تتکرر إطلاقا، فی أی موقع آخر جاءت به الکلمهٔ نفسها، علی أن التطابق القرآنی بین کلماته و واقعها المادی لا یأتی وصفا عددیا و موقعیا فحسب، و لکنها فی القرآن حکما و أحکاما، و فی الحیاهٔ کلها خضوعا لحکم کتاب اللّه و تفصیلا لأحوال الحیاهٔ، و هی تهتدی بنور کلمات اللّه» أی أن القرآن یحکم الحیاهٔ بکلماته و لا یصفها فقط. إن الحیاهٔ تتکاثر تکاثرا کمیا لتلبیهٔ حاجاتها، کما فطرها اللّه، و أن اختلاف الأعمال و اختلاف الأشیاء علامات للوعی البشری حتی یدرک عظمهٔ خالقه الذی جعل من المختلفات متفقات علی غیر قدره من المختلفات أن تکون علی العکس منها تماما متفقات، و لو کانت کلمات القرآن ککلمات البشر لاحتاجت فی وصفها لهذه الاختلافات أن تتنوّع و تختلف و تعدد، و بذلک تفقد صفهٔ الثبات و الیقین، أما کلمات (______________________ ۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاهٔ- محمّد العفیفی، ص ۲۰. (۲) المصدر السابق، ص ۲۲. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۸ القرآن فتفصیلها یعنی ثباتها، و کل ثبات هو یقین، أی وصول إلی حل ثابت و نهائی لکل معضلهٔ. فالقرآن ثابت الکلمات مثبت لسائر الأحوال المختلفهٔ فی الحیاهٔ بکلماته الثابتهٔ، و هی ثابتهٔ لأنها لا تتکرر، و هی لا تتکرر لأنها مفصّلهٔ تفصیلا مطلقا «۱» «فمهما تتغیر الحیاهٔ و مهما یکتشف الناس من العلوم، فالقرآن یحکم حکما مادیا أخلاقیا- ما- علی کل شیء بهذا التفصیل المعجز الذی حققه اللّه لکلماته، و هو تصنیف مطلق

الدّقة و الإصابة»، و يصف المؤلف هذا الثبات بقوله «۲»: «و الثبات الصحيح فی الحياة هو التطابق بين كلمات القرآن، و بين تغيرات الحياة و مكتشفات العلم»، فليس عجيبا بعد ذلك أن يكون القرآن سابقا بما كشف عنه من العلم قبل اكتشافنا للكثير منه، و قبل ما نعلم فی المستقبل، فندرك أن القرآن سابق بالحق أبدا، و يعتقد المؤلف أن «هذه هی معجزة التكوين الفذ المعجز لعلاقات الكلمات القرآنية فيما بينها و أحكام هذه الكلمات القرآنية فی حكمها للوقائع التی تكوّن الحياة فی جملتها و تفصيلها»، و يفترض المؤلف، دلالة علی إعجاز القرآن، أنه لو حاول أی مؤلف لكتاب أن يؤلف كتابا فيه إحصاء لعدد الكلمات التی يتكون منها فلا بد أن تكون كل كلمة ترد فيه إما مرة واحدة أو أكثر، و لن يجری أحد إحصاء مثل هذا لأن العلم الذی فيه علم احتمالی و يحتمل الخطأ، و حتی و لو كانت فيه حقائق العلوم المعروفة فإنها قد تتطور و تتغير، و بالتالی فإن أی إحصاء أو تبويب من هذا النوع إنما هو شیء لا يجرؤ عليه أحد، لأنّ المقصود من هذا الإحصاء هو التعبير عن مقولات فكرية عملية حقيقية لكل مادة لغوية يعبر عنها لفظ من الألفاظ، و فی علاقاتها مع غيرها، ثم إنها تدل علی واقع الحياة المقابل لهذه المقولة، أما السبب فلأن مثل هذا الكتاب سيكون جزءا من الحياة هی حقيقتها، أما الألفاظ و المقولات التی لا تجد رصيدها فی الواقع فهی من الأوهام، لأن أی كلمة حقيقية تعنی التطابق بين أی شیء فی الحياة و أی شیء آخر علی نحو يتيح شيئا صحيحا ينفع الحياة و الأحياء، و هكذا يصل المؤلف إلی القول: «إن الناس جميعا لا يمكنهم أن يؤلّفوا كتابا من أی نوع تنطبق عليه هذه الشروط القاسية أو كل الشروط المستحيلة»، و يبرّر ذلك بقوله: «لأن صلة و عينا بالحياة كلها، صلة احتمالات و تغيرات و مفاجآت و انقطاع عن العلم الحقيقی». و هكذا يصل المؤلف إلی القول بأنه «۳» «فی العالم كله كتاب واحد، قدم للناس جميعا حقائق العلم، قبل أن تثبت فی معارك العلاقات بين الوعی البشری و بين مادة

(____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفی، ص ۲۵. (۲) المصدر السابق، ص ۲۸. (۳) المصدر السابق، ص ۳۹- ۴۰. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۷۹

الكون، ذلكم هو القرآن»، و لذا «۱» «فإن عقلاء العالم كله ليعجبون كيف يكون فی عالم الناس (القرآن) و لا يجعلونه قبلتهم جميعا لفهم الحياة و تفسيرها، و معرفة الحقيقة و العمل بها». إن الكتاب الذی يحق له أن يحكم العالم، لا بد أن يتّصف بأنه ليس بحاجة إلی تعديل أو إضافة لأن أحكامه يقينية، بمعنی أن كل علاقة يعقدها بينه و بين الحياة، لا بد أن تكون علاقة تخضع كل تجارب الناس، و كل علاقاتهم بالحياة للفوز المبين المعقود علی نواصی كلماته، فما بالنا إذا ثبت، بالدليل القاطع، مع ذلك كله أن كلمات القرآن حقائق ثابتة لها وقائعها فی الحياة كلها فيما يتعلق بالنصوص التی تدور حول الحياة الدنيا، إذ حقائق الحياة هی وسائل إيضاح لكلمات القرآن، و ما وسائل الإيضاح هذه إلّا ... إن كلمات القرآن تحكم الحياة الحقيقية، و لا تحكم ظروفا محددة لدرس من الدروس، أو عبرة من العبر التی تنتهی بلحظة إلقائها. إن الحياة متصلة و مفصلة، و كلام اللّه متصل و مفصل، و هو يهيمن باتصاله و تفصيله علی اتصال الحياة و تفصيلها. كلمات القرآن، كما سنتبين حقيقتها المعجزة فی هذا الشأن بعون اللّه، تنفرد بمعجزة عظمی لا نظير لها فی أی ألفاظ فی أی كلام، و صدق اللّه العظيم وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [النمل/ ۹۳]. و يشبّه المؤلف عمله بعمل الفيلسوف البريطانی برتراند رسل حينما حاول أن يصنع لغة رياضية خاصة تعتمد الرقم و العدد لتحكم وقائع الحياة حكما عدديا، ثم حكما وصفيا أخلاقيا جدليا عمليا، و لكنه فشل بذلك، لأن مدار بحثه كان لغة البشر و فكر البشر و علم البشر، و لو بحث هذا بالقرآن لوجده، كما فعل المؤلف نفسه بهذه الكلمات مع الاختلاف الظاهر بالشكل، و ينتهی هذا الفصل بالتعميم التالی الذی يسميه المؤلف الحقيقة الكبری «۲» «إن كلمات القرآن أكثر واقعية- و أعز حقيقة- من مصطلحات الحقائق العلمية الثابتة، و لا نقول الفروض أو النظريات. إن الكلمة القرآنية (آية)، و معناها العلاقة و الدلالة، قد وحّدت فی مدلولها بين الآية القرآنية و بين الآلة المحسّة فی الوقائع المادية فی الحياة، علی أساس أن مدلول كلمة الآية هو الوسيط بين علاقات الأشياء بحقائقها النسبية و الحقيقة الكلية المطلقة»، بل إن هذا التطابق بين الكلمة القرآنية و الحياة يعتبره المؤلف آية بنفسها من اللّه «و كل من الكلمة القرآنية و واقعها فی الحياة بينها علاقة حكم للقرآن، و خضوع فی واقع الحياة

(____١) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّـد العفيفى، ص ۴۴- ۴۶. (٢) المصـدر السابق، ص ۴۸، ۴۹. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۰ يبينان معا، إن هـذه العلاقة نفسـها آية من آيات اللّه»، «فالعلم كله، كما يقول المؤلف، بحاجة إلى هذا الاكتشاف الضـخم فى كلمات القرآن، لأنها تحقق ذلـك كله، و تعطى لكـل مرحلـة منه حقها الواضـح الـذى يربط بين المادة و الأخلاق ربطا عضويا، كما حـدد القرآن لكل كلمـة من كلماته قيمة يقينية، هى أعز من حقائق العلم التطبيقية نفسـها». بهذا المنهج، يبدأ المؤلف تطبيق تفسيره للقرآن باعتباره هو نفسه تفسيرا للكون و الحيـاة، و يعتبر أن هـذه الدراسـة، فى مفردات القرآن و كلمـاته، قـد حاولهـا العلمـاء القـدماء حين أحصوا كلمات القرآن، و أحصوا حروفه و لكنهم لم يعمـدوا إلى التـدبر العميق فى العلاقـات الواقعيـة التى هى متحققـة بين كل كلمـة من كلمات القرآن و بين أسـس الحقيقـة على إطلاقهـا و نهاياتهـا من أفكار الناس و أعمالهم ... أما الضـرورة التى تسـتدعى أن تكون الحاجـة إلى كلمات غير بشـرية للتعبير عن الحقيقة، فيرجعها المؤلف إلى أن الإنسان نفسه واقع فى الحياة التى تخضع للتغيير و التضاد و الحركة، فهو ليس فوق متناقضاتها لكى يسـتطيع أن يحكم عليها من خلال وعى بشـرى خاضع لها أساسا، و يربط المؤلف هـذه الضـرورة للكلام غير البشـرى بالحاجة الأساسية التى وقع العلم المعاصر بها، و هو يبحث عن لغة فكرية علمية سديدة، و يستشهد بآراء بعض المفكرين على ذلك، و هو يعتبر أن القرآن هو المعجزة البـاهرة التى تحـل هـذه المعضـلة حلا ـ لا يمكن أن يتم من أى طريق آخر. إن العالم مملوء بالكلمات المبهمـة و الأخطاء اللفظيـة حتى تحولت الفلسـفة إلى ضـرب من الأدب، فتحول العالم إلى لغـة الرياضـيات كحل لهذه الإشـكالات و المبهمات و سوء الفهم، و لكن لغة الرياضـيات تعد و تحسب و لا تشخّص و تصف، و لا تحقق وجودا لغويا حيا متصلا بتغيرات الحياة و تضادها و اتصالها، فهى تعجز عن التعبير عن ذلك. إن تكاثر الحياة و مفرداتها و اختلافاتها تسـتدعى لغة أو كلمات تناسـبها بعددها لكى تصـفها، و هكـذا كلمـا تكثرت حاجات الحياة تكثرت اللغـة أو الكلمات الدالـة عليها، و لما كانت تغيرات الحياة لا نهائيـة و غير محـدودة و لا ـ يمكن الوصول إلى كلمات غير محـدودة و لا نهائيـة، لـذا وجب أن يكون هناك من يجمع كل تناقضات الحياة و يعلو عليها، و لا يجعلها مقابلـة لألفاظ أو كلمات اللغـة، و إنما أيضا حاكما عليها بالحقيقـة، تلك اللغـة و الكلمات هى لغة القرآن و كلماته غير البشـــــريه، لـــــذا نرى المؤلـــــف يؤكـــــد على أن «١» «الحـــــق هـــــو ظهير للكلمـــــة، فـــــإن عبـــــدنا الحقّ

(____١) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۷۶. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۱ صدقت كلماتنا، و إن أخضعنا كلماتنا لكلمات اللّه فزنا بالعلم كله و بالنجاة من الشك و الريب و بحسن المسيرة فى الحيـاة إلى مصـيرنا الـذى حتّمه الحق سـبحانه»، و يقول «١» «إن سـائر قوانين المادة، و قوانين علاقاتنا البشرية بها مذخور هاهنا، فالكلمة القرآنية ليست كلمة تقال كأى كلمة و لكنها حشد للحياة، خاضعة لكلمات اللّه خضوع عبادة للّه»، إن اللّه هو الـذى يمنحنا مصادر الأفكار و مواردها، فكلماتنا ما لم تخضع له، إذ نتفكر فى آياته، فهى باطلـة، و ليس فى وسعنا إذن أن نتكلم فنصدق. و يخلص المؤلف إلى القول «٢»: «إن الحياة كلها لم تعرف كتابا واحدا عدا القرآن قد كشـف الحقيقـة الشاملـة للحيـاة ليكون هو، فى إحكـام كلماته و فى تفصـيلاتها، قـد أحاطها بالحياة، و حكمها حكما شاملا للمادة و الأخلاق جميعا». على أن للمؤلف رأيا لا يمكن تجاهله فى إيضاحنا لفهمه للقرآن و تفسيره، فهو، بناء على نظريته فى الكلمة القرآنية المعجزة، و تطبيقا لعنوان كتابه «القرآن تفسير الكون و الحياة» يجد، ضـمن مفردات تحليله لكلمة تفسير و تأويل الواردة فى القرآن، أن القرآن لا يمكن أن يفسّـره أحد مهما بلغ من العلم، و حتى الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم إنما بيّن القرآن بيانا و طبّقه عمليا و لم يفسّر القرآن أو يـؤوله رغـم أنه مؤيـد من اللّه بـأنه وَ مـا يَنْطِـقُ عَنِ الْهَوى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى [النجم/ ٣، ۴]، فكيف يشـرح هـذه الفكرة بمصـطلحاته و صـياغاته اللغوية الخاصة؟. يعقد المؤلف فصـلا تحت عنوان (أ فلا يتدبرون القرآن) يبدأ بسؤال (كيف نفسّـر حياتنا فى القرآن) ليصل إلى أن العلاقـة لمّا كانت بين الإنسان، و شأنه الخضوع لكتاب اللّه، و بين القرآن، و شأنه حكم كل شـىء بكلمات اللّه، لـذا فمن أراد أن يفهم الحياة أو يفسّـرها فلن يتحقق له شـىء من ذلك إلا بالقرآن، فهـذا محتاج إلى ربط أنفسـنا بالقرآن كلّما تدبرنا

القرآن، ثم لیستنتج «۳» «بأن القرآن حقا هو تفسیر الحیاة، و لا یمکن أن یکون للحیاة تفسیر غیر القرآن، و المقصود بالحیاة الکون و الحیاة معا بل و الوجود حاضره و غائبه». إنه ینعی علی التعبیر العملی للحیاة عجزه عن متابعة متغیراتها و مفاجآتها فی کل لحظة «۴» «إذا کانت الحیاة الإنسانیة کلها تبحث عن لغة للتعبیر فلا- تجد لأن متغیرات الحیاة تفاجئنا کل لحظة بما لم یکن فی الحسبان. إن القرآن هو التفسیر، التفسیر الوحید الیقین المطلق لکل شیء للحیاة فی شمولها و تفصیلها».

(____۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاة- محمّد العفیفی، ص ۷۸. (۲) المصدر السابق، ص ۸۶. (۳) المصدر السابق، ص ۲۸۶. (۴) المصدر السابق، ص ۲۸۷. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۸۲ و هکذا حینما یستشهد بقول القرآن وَ لا یَأْتُونَکَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناکَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِیراً [الفرقان/ ۳۳] نراه یعلق علی کلمة تَفْسِیراً «بأنها جاءت مرة واحدة دالة علی أن کلام اللّه هو الذی یفسّر کل ما عداه تفسیرا، هو الحق فلیس بعد الحق إلا الضلال، فمهما یحاول الناس أن یصیبوا الحق فی تفسیرهم أمرا من أمور الحیاة، فربما تیسّر لهم شیء من صواب الرأی أو القول، و لکنهم لن یعلموا یقینا أنهم أصابوا أحسن الحدیث و أحسن العمل، کمن یسافر من بلد إلی آخر، فلعلّه یختار مکانا من البلد وصل إلیه و غیره أحسن منه و هو لا- یدری من ذلک شیئا، بل هو لا یدری وجه الإصابة فیما أصاب، و الیقین لا مصدر له إلا اللّه وحده لا شریک له»، و یستشهد بحدیث الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم (من قال فی القرآن برأیه فأصاب فقد أخطأ)، و یشرحه بقوله «۱»: «إن الأصل فی القرآن أنه هو الیقین، فلا- یکافئه فی القول فیه إلا الیقین، و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم هو المؤید بالیقین، فکان کلامه عن القرآن و عمله به هی الصدور الکامل عن الوحی، و کان ما عدا ذلک من القول بالرأی باطلا لأنه إن صادف وجه الحق، و الحق بکل شیء محیط، فلیس یغنی ذلک من الیقین بالحق و وضوحه فی وعی القائلین بالرأی، حیث لا یغنیهم أن یصلوا إلی الحق اتفاقا لا یقینا ظاهرا فی الاعتقاد الذی یبین العمل و یحققه تحقیقا کاملا فی الضمیر، فضلا عن سائر الجوارح، حیث هذا الظهور فی الفهم هو طریق التواصی بالحق و التواصی بالصبر». إن المؤلف یری أن الآیة السابقة تدل دلالة واضحة علی أن القرآن هو الذی یفسّر و لیس هو الذی یفسّر، و یبنی رأیه علی أنه لیس من شأننا، نحن البشر العادیین، بعد ذلک أن نقول إن أحدا من الناس قد فسّر القرآن، فإذا القرآن مفسّر و لیس مفسّرا کما بیّن لنا القرآن، و کما حقق لنا التفصیل المطلق لکلمات اللّه تعالی، و قد استثنی مقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من هذا الحکم حیث هو المبلّغ، و هو المؤدی للأمانة، فهو المبیّن للبیان القرآنی، و بیان البیان هو التبلیغ و لیس التفسیر. أما کلمة التأویل و التی یعتبرها المؤلف أدق تعبیرا عن القرآن من کلمة التفسیر، فهو أیضا شیء لا یقدر علیه أحد إلا- اللّه، و یکون التسلیم بالنص القرآنی، حسب وروده، هو البدیل الوحید للإنسان لکی یتلقی العلم الإلهی «فالتأویل هو عدم القدرة البشریة علی التأویل، و معرفة الناس ذلک هو وضوح خضوعهم للحق سبحانه، و هذا هو التسلیم بحدود الإنسان و إقامة حدود اللّه فی النفس و الضمیر و الفکر، و المعادل العملی لهذه الحقیقة هی تلمذة

(____۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاة- محمّد العفیفی، ص ۲۷۵. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۸۳ المؤمنین للقرآن تلمذة کاملة شاملة متصلة، فالمؤمن لا یدخل علی القرآن برأیه و إنما یدخل علیه متأدّبا طالبا متتلمذا عالما بعجزه عن التأویل، و هذا هو أقوی أسباب العلم»، و أخیرا یصل إلی التعمیم التالی لکل ما تقدم فیقول «۱»: «فلسنا إذن من یفسّر القرآن أو یؤوله، و إن کان للرسول صلّی اللّه علیه و سلّم شرف بیانه، کما هو ظاهر فی آیاته البیّنات، و تأویله فی حدود العمل به، إذ العمل نوع من أنواع التأویل، و مقام الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم منه هو مقام الأسوة الحسنة، و مقامنا نحن مقام التلقّی و الأخذ عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم مع الوعی بأن تأویل القرآن علی أساس شامل متصل بأمور الغیب جمیعا إنما هو من أمر اللّه وحده، و لا سبیل لنا إلی ذلک إلا بالإیمان». و مع أنه یعود لیستثنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من ذلک علی أساس أنه قد یکون أن اللّه سبحانه قد أطلعه علی تأویل من تآویل الغیب و لم یأمر ببیانه لیلة أسری به و عرج به إلی السماوات العلی، إلّا أنّه یؤکد علی أن ظاهر التأویل یدلّنا علی أن تأویل الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم للقرآن

كان بالنسبة العملية و القولية أى تحقيق القرآن بالعبادات أنه يبنى موقفه على قوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ [القيامة/ ۱۷– ۱۹] فيقول بأن اللّه وحده هو الذى بيّن كلامه و الرّسول الأعظم صلوات اللّه عليه قد بلّغ الرسالة، و أدّى الأمانة بيانا للبيان لا- بيانا لشىء محتاج لبيان، و إننا لنقرأ فى سورة الطلاق قوله تعالى رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ [الطلاق/ ۱۱]، كما نجد فى سورة البقرة «۲» وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ [البقرة/ ۹۹]، أما دور الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيان القرآن للناس، كما يقول المؤلّف، فيكون فى طريقين: «أحدهما: متصل ببيان بيان القرآن ذاته، و ذلك من قوله تعالى، كما نجده فى سورة النّحل وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل/ ۴۴]، فكون القرآن هو الذكر، فهو بيان واضح يحتاجه التذكّر الإنسانى ليعقد بينه و بين كل شىء العلاقة الصحيحة التى يتمّ بها الوعى بكل شىء، و الفعل المضارع يَتَفَكَّرُونَ يبيّن لنا الحالة الآنية بين الإنسان و موضوعات تفكّره و تذكّره. و ثانيهما: هو بيان حقائق الحياة الخارجية، كما يبيّنها البيان القرآنى، و كما يبلّغ ذلك كلّه الرسول صلوات اللّه عليه، فذلك ما نجده فى الآية الرابعة و السّتين من

(____) ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة– محمّد العفيفى، ص ۲۷۹. (۲) المصدر السابق، ص ۲۸۲. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۴ سورة النحل أيضا وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل/ ۶۴]. فالذى اختلفوا فيه هو أساليب تفكّرهم، و أساليب فهمهم لحقائق الأشياء، حيث بيّن لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن الحقّ جلّ و علا هو وحده ربّ كل شىء، و هذا بيان قرآنى ظاهر، فعمل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم هو بيان البيان». و هكذا يصل المؤلّف إلى ختام هذا القول بالتأكيد الواضح على أن كلمة التفسير فى إطلاقها على القرآن على أساس أن يكون الناس هم الذين يفسّرون القرآن شىء غير صحيح، أما من استطاع أن يتدبّر القرآن فليفعل على أن لا يدّعى أنّه يفسر كلاما محتاجا لتفسير، و إنما على أساس أن القرآن هو المفسّر للحياة و الأحياء، و أن من يتدبّر القرآن من النّاس فهو إنما يفسّر الناس القرآن و هم منه بهذا المكان. إذن، فالمؤلّف يطرح كلمة التدبّر بدل التفسير و التأويل، و يعتبر أن مقام رسول اللّه عليه الصّلاة و السّلام هو قمة التدبّر و مقام الكافة هو التدبّر، كما يناقش المؤلف ابن تيمية فى قوله بأن السنّة شارحة للقرآن، و يناقش الأحاديث النبوية مثل (ألا إنى أوتيت القرآن و مثله معه)، و يعتبر التطبيق العملى للقرآن هو معناها، و يعتقد أن القرآن هو الذى يهيمن على السنّة و يفسّرها و ليس العكس، كما هو مشهور عند المفسّرين و الأصوليين، كما يرد على معنى الحديث (اللهم فقّهه فى الدين و علّمه التأويل) فى حق ابن عباس، فيورد اختلاف الرواة على كلمة التأويل حيث وردت مرّة، و وردت بدلها الحكمة مرة أخرى ليصل إلى القول: «إن كلمة تأويل فى حديثه صلّى اللّه عليه و سلّم تعنى كلمة ما يؤول إليه أمر الحياة و الأحياء جميعا، إذ يحقّ اللّه تعالى الحقّ بكلماته»، و يعتقد أن المقصود بقوله تعالى هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ [الأعراف/ ۵۳] هو حالنا فى الدنيا، حيث نحن بانتظار دائب لما سبق به القرآن من أنباء الغيب، فتأويله متحقق فى الدنيا على توالى اكتشافات العلوم، و فى قمّة هذه الاكتشافات يوم يأتى تأويله، أى يأتى يوم القيامة، أما كلمة التأويل فى الآية الأخرى وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران/ ۷]، أما الراسخون فى العلم فعلمهم هو تسليمهم بالجهد الإنسانى، و بذلك يصبح الإيمان هو أعلى درجات العلم غير المباشر، أى العلم المتصل بالإيمان بالحق. فهاهنا يتحقق العلم بعدم العلم البشرى، و يتحقّق الإيمان بالعلم الإلهى وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ [آل عمران/ ۷] و قولهم آمَنَّا بِهِ هو اتصالهم بعلم اللّه، فهم بالعبادة الخالصة لربّهم سبحانه بين عبادتين: عبادة بالفكر، فهم الراسخون فى العلم، و عبادة بالعمل، فهم فى تطبيق متواصل للعلم الذى لا يحصل بالاكتساب و إنما يحصل بالاقتراب وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ [العلق/ ۱۹]، و حينما يسأل هل بالإمكان الاستفادة الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۵ من العلوم، كالطب و الفلك و علوم الذرّة و الرياضيّات و غيرها، كوسائل لتدبّرنا للقرآن؟ يجيب أن الاحتياط الواجب اتخاذه هنا هو أن يكون المنطلق من كون هذه العلوم هى فى مكان خضوعها للقرآن و خضوع كل شىء لأحكام القرآن «إننا مثلا حين نصنع الصواريخ، و حين نصعد للقمر ننظر للإنجاز فى ذاته و المنجزات فى ذاتها، و لا ندرك أن القرآن وصّل كل شىء بكل شىء فالأخلاق التى تحدّد لنا قيمة المنجزات و طريق عملنا بها إنما

هى فى القرآن. إن القرآن يحكم القوانين الأساسية لحركة الفصل و الوصل فى أعمق أعماق النفس و الحياة، القرآن يحكم حركة الحياة التى نجهل مصيرنا فى غاياتها البعيدة» و المؤلّف يستغفر اللّه العظيم حينما يقال له إن العلم البشرى من جهة، و القرآن من جهة يكمل بعضهم بعضا و يجيب «۱»: «القرآن فى الحكم لأنه كلام اللّه فهو (الآمر) و حياتنا فى الخضوع لأنّها من خلق اللّه فهى فى (الخلق)، يقول اللّه تعالى أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ [الأعراف/ ۵۴]، فحقيقة ذلك أن أى ابتداع فى العلوم إنما هو الخضوع القهرى لكلام اللّه، فإن عرف الناس حسن الأداء للمنتجات فهم متصلون فكرا و عملا بالحياة، فهذا الاتصال هو الحق و اللّه يحقّ الحقّ بكلماته». و لعلّ من أخطر ما جاء به هو قوله بأن القرآن هو الذى يحدّد اللغة و ليست اللغة هى التى تحدّد القرآن، فى تعليقه على تفسير ابن تيمية لكلمة الصمد، و التى قال بأن معناها اللغوى (غير الأجوف) و يقول «۲»: «أستغفر اللّه العظيم، إن اللّه تعالى ليس كمثله شىء و الأشياء منها الأجوف و منها المصمد، و هذه العثرة الكبرى من عثرات الكرام قد أدّى إليها الاعتماد على اللغة، و القرآن هو الذى يحدّد اللغة، و ليست اللغة هى التى تحدّد القرآن، أ لم نتدبر معا من قبل قوله تعالى وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا [الرعد/ ۳۷]، فالقرآن، إذن، كلماته هى أحكامه، و الكلمة من كلمات اللغة إذا كانت قد جاءت فى القرآن فهى بموقعها من القرآن، و بصيغتها القرآنية إنما هى حكم يزيدنا بيانا كلما ازددنا توسعا فى التدبّر، و نحن فى التدبّر خاضعون بلغتنا و حياتنا كلها لهذه الأحكام القرآنية (______________________________». ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۳۱۱. (۲) المصدر السابق، ص ۳۱۵. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۶

الإعجاز العلمى فى الإسراء و المعراج

اشارة

الإعجاز العلمى فى الإسراء و المعراج حينما نتحدّث عن معجزة الإسراء و المعراج فى إطار المعجزات العلمية الخارقة لجميع العصور، ما جاء منها و ما لم يجىء، فإنما لكى ندلّل بهذه المعجزة على استمرارية إعجاز نبوة خاتم النبيين من خلال القرآن الكريم، و إذا كانت أكثر المعجزات العلمية المذكورة فى القرآن قد أصبحت الآن معلومة لدى الكثير من العلماء فى الفيزياء و الكيمياء و الفلك و البيولوجيا ... إلخ، و قد أصبح الإيمان من خلالها بالقرآن، و بصدق نبوة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم واضحة و ساطعة، إلّا أن القيمة الأكبر فى المعجزة القرآنية فى الجانب العلمى بقيت، و ستبقى أبد الدهر، مما يستحيل تفسيره مهما تقدّمت العلوم و تطورت، و مهما اكتشف من حقائق الكون و الإنسان. إن العلم تحدّث عن ثلاثة أغطية للجنين، أو ثلاثة حجابات فى بطن أمّه، و اكتشفها حديثا، و كان القرآن قد سبقه فى الحديث عن الظلمات الثلاث، كما أن العلم تحدّث عن وحدة الكون، أى أن السماء و الأرض كانتا واحدة و انفجرت و لا زالت تتمدّد فى عملية الانفجار، و كان القرآن قد قال أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [الأنبياء/ ۳۰]، و كثير من المعجزات العلمية المكتشفة حديثا، و التى سبق القرآن فيها العلوم كلّها فأشار إليها، إلّا أن معجزة الإسراء و المعراج تبقى حتى اليوم قائمة تذكّر بإعجاز خارق لا يتكرّر، و لا يستطيع أحد أن يدخله فى مفردات الفيزياء و الكيمياء و الكون، أى إنه باق على إعجازه كما كان حينما أرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قريش، فهو كما كان معجزا لهم لا زال معجزا لنا حتى الآن مع كل التقدم العلمى على كافة المستويات. لقد اكتشف العلم الحديث الكون و أبعاده، و اكتشف الحياة و نشأتها عن الماء، و اكتشف كيفية حدوث الحمل و الجنين فى الأم، كما اكتشف الذرة بمفرداتها و الخلية الحية بأسرارها و الطبيعة و جيولوجيا الأرض، كما اكتشف حركة الكواكب و المجرّدات و الفضاء ... إلخ، و استطاع أن يصل إلى مفردات علمية سبقه القرآن بها منذ أربعة عشر قرنا، و لكنّه، بكل الأحوال، اكتشف هذا الآن و أصبح الإعجاز لا الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۷ ينصب إلّا على أن القرآن له السبق التاريخى فى هذا، و أنّه جاء عن طريق رجل أمّى لا يقرأ و لا يكتب، فى حين هو يفحم علماء القرن. إذن، ما دمنا قد فهمنا فى القرن

العشرين أسرار الحياة و الكون و الذّرّة، فلنا إعجازنا نحن أيضا بقدرتنا على هذا التطور و التقدّم، و بذلك أصبحت كثير من المعجزات العلمية- لا كلّها- فى القرآن مسلّما بها فى العلوم، فكيف أستطيع أن أدعو إلى الإسلام و القرآن بعد أن انكشفت معالم الحياة و الكون أمام الإنسان الجديد، فاستطاع أن يفهم الكثير، و حتى إذا ما قلت له إن هذا الإعجاز العلمى يدل على أن القرآن ليس من كلام البشر، فهو لا بد أن يكون من عند اللّه تعالى، و إذا ما صدّق المستمع هذا القول فإنه سيبقى يطالب بدليل إعجازى مستقبلى مستحيل حتى على نظرياته العلمية و اكتشافاته الجديدة أن تصل إليه، و هنا يأتى إعجاز الإسراء و المعراج كدليل لاستحالة كل ما جاء به على قدرة البشر مهما توصّلوا إلى تقدم و تقنية. و الإسراء و المعراج ليس آية تقرأ فى القرآن ثم نحاول أن نبنى عليها افتراضاتنا العلمية، أى إنّها ليست خبرا و إنما حدثا واقعيا وقع للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و عاشه بكيانه المادى الطبيعى، فهو يتجاوز الإخبار بالحقائق العلمية المحتملة إلى الحوادث الواقعية المعاشة من قبل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى رحلته المباركة، فإذا ما قال القرآن الكريم وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ [الأنبياء/ ۳۰] أو قال أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [الأنبياء/ ۳۰] فهذا يمكن طرحه كفرضية علمية، و البرهنة عليه من خلال المختبرات و المجاهر و التلسكوبات و نظريات الفيزياء الذرية و الكونية، و لكن حينما يقول القرآن الكريم إن محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم انتقل عبر (دابة) من مكة إلى القدس، و من القدس عبر المعراج إلى السماوات العلى، فهذا لا يبقى تحت التجربة العلمية لأنه يتجاوز كل الفرضية العلمية المعروفة حتى اليوم إلى ما هو أبعد من خيال أى عالم أو أديب، فكيف يتحقّق ماديا و طبيعيا؟ بل إنه قد يتناقض مع مفردات العلوم الحديثة متجاوزا لها إلى أبعد مما يتصور الخيال. فإذا كانت العلوم الحديثة لا تستطيع أن تنقل الإنسان إلى القمر إلّا عبر التكنلوجيا المعقدة و أجهزة التنفس الصناعية، فكيف بها إذا واجهت تحدّى اختراق السماوات العلى كلها فى ليلة واحدة؟ و إذا ما رفض الإنسان أن يصدّق بمعجزة الإسراء و المعراج فسوف يجابه بمئات المعجزات العلمية التى تحقّقت اليوم قد أشار لها القرآن و حدّدها قبل ألف و أربعمائة سنة؟ فالذى يصدّق بمئات المعجزات العلمية، و التى ليس ثمة تجربة علمية سبقتها للدلالة عليها، و إنما هى آية من كلمات فقط جاء بها الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم و هو أمّى لا يقرأ و لا يكتب، هذا الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۸ الذى يصدّق بهذه المعجزات العلمية كلها، المكتشفة حتى الآن لا بدّ له أن يسلّم بأن القرآن هو من عند اللّه و ليس كلام البشر، و بالتالى فالذى يصدّق فى مئات النماذج العلمية، لما ذا أنكر عليه هذه المعجزة التى لم يصل علمى حتى الآن إليها؟ فلا بد أن أصدّق. و إذا ما سلّم بأن اللّه تعالى هو الذى تكلم بالقرآن- و هذا ما لا بد له منه- إذن فلا بد أن يصدّق أن الذى جاء به هو رسول من اللّه تعالى إلى البشرية، على السياق المعروف فى بعث الرسل أجمعين، و هكذا تكون القيمة الإيمانية للإنسان المعاصر، حينما يسلّم غيبا بما لم يثبت له علما، فيحوز درجة المؤمنين الأوائل الذين آمنوا بالقرآن فصاحة و بلاغة إعجازية، و لم يستطيعوا أن يصلوا إلى كل معانى القرآن العلمية، فأسلموا و آمنوا و لم يطلبوا من البرهان أكثر مما جاءهم و تحمّلته عقولهم. إذن، معجزة الإسراء و المعراج، بهذه الصورة الموصوفة بها، تبقى دليلا أكيدا على إعجاز القرآن و على استمرارية دعوة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من خلال القرآن و شموليتها لكل الخلق، و تؤكّد أن خاتم النبيين لم يترك العالم دون معجزة حتى و هو قد فارق الحياة، بل ترك لهم معجزة ناطقة تتكلّم بكل اللغات الإنسانية، و بوجوه متعدّدة تناسب كل عصر من العصور حتى قيام الساعة، و لغتها اليوم و وجهها هى العلوم و التّقدّم العلمى، فلو أرسل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم اليوم إلى العالم لن تتغيّر مفردات كلماته، و لن يتغيّر القرآن الذى جاء به فهو قد جاء للناس كافة بشيرا و نذيرا و شاهدا على الجميع، و قد جاء قرآنه ليبقى الكتاب الذى فيه تبيان كل شىء، لأنه تعالى لم يفرّط فى الكتاب بشىء، و يدلّل كل يوم على صدقه و إعجازه، و قد أكّد، بأكثر من آية، أنّه يتحدّث لكل إنسان فى كل عصر على مدى الزمان كله و يعطيه دليله و حجّته سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت/ ۵۳] و قد تبيّن لنا اليوم أنّه الحق الأوحد فى كل جانب و فى كل مكان و زمان. على أن من ميزة هذه المعجزة أنّها جاءت كحادثة للرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم مما تعتبر به تعظيما له و تقديرا و تبجيلا، فلو كانت آية خبرية لكانت كالآيات الأخر التى تكتسب قيمتها من كونها فى القرآن و ليس للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فيها إلّا ما له فى غيرها من آيات

القرآن، أما هذه المعجزة فهى قد حدثت له شخصيا و فرديا، و لما كانت هى أعظم المعجزات القرآنية علميا، كما نفهمها اليوم، فالرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم يكون له من هذه العظمة الإعجازية الحظ الأوفر و الموقع المتقدم. و هكذا نرى أن اللّه سبحانه و تعالى، حتى فى آيات الإعجاز العلمى التى بهرت العقول و الألباب، جعل لرسوله الكريم أفضلية كبيرة على جميع المعجزات الواردة الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۹ فى القرآن الكريم، و هذا ما جعل الشيخ أحمد محيى الدين العجوز يقول فى كتابه «معالم القرآن فى عوالم الأكوان» ما يلى .. «۱» «فأراد سبحانه أن يكون لنبيّه محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم الأسبقية فى كل تقدّم و انطلاق، فمهما تقدّم الناس فى علومهم، و مهما ترقّوا فى فنونهم، و مهما توصّلوا إليه فى أعمالهم من وسائل النقل و الأسفار، و مهما ابتكروا من صنعة لاجتياز الأبعاد و ارتقاء المعالى، فإنّه خصّ نبيّه محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم بأعظم من ذلك، برحلة أرضية أسرع، و رحلة سماوية أبلغ، فلا يكون لغيره تفوّق فى الانطلاق، و لا تميّز فى الارتقاء». إن معجزة الإسراء و المعراج حدثت قبل أربعة عشر قرنا، فما هى القيم المعنوية و الاعتبارية فيها؟ و كيف فهمت هذه المعجزة آنذاك؟ و كيف كانت المعانى التعظيمية للرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم من قبل ربّه سبحانه و تعالى تفهم من قبل أولئك البشر الذين كانت استحالتها المطلقة تساوى الإيمان المطلق بها، و التسليم بصدقها من قبل المؤمنين حقا حتى قيل إن الصدّيق أبا بكر سمّى صدّيقا لأنه أوّل من صدّق بها رغم استحالتها المطلقة فى الذهن البشرى الاعتيادى، و لكن إيمانه كان أقوى من مفردات الاستحالة الطبيعية التى طرحتها هذه المعجزة عليه، و بغضّ النظر عن معقوليتها من عدم معقوليتها، بل و عدم القدرة على البرهنة على إمكانها حتى كمعجزة؟ أما مضمون تفسيره لتصديقه فهى، كما جاءت الرواية التاريخية، من أن «۲» «رجالا من المشركين سعوا إليه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنّه أسرى به إلى بيت المقدس؟ قال: و قد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أ تصدّقه أنه ذهب إلى بيت المقدس و جاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إنى لاصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه فى خبر السماء فى غدوة و روحة»، على أن البعض من ضعاف الإيمان من المسلمين ارتدّوا بعد حديث الإسراء لقلّة إيمانهم، و عدم قدرة عقولهم على مجرّد التصديق بالانتقال من مكّة إلى القدس و العودة فى ليلة واحدة، فكيف بخبر السماوات السبع و ما فوقهن؟. فما هو الإسراء و المعراج؟ و ما هى الآيات و الأحاديث الدالة عليه؟ و كيف فسّرها و فهمها الأقدمون قبلنا؟ يقول القاضى عياض، فى باب كرامة الإسراء، فى كتابه الشفا فى أحوال المصطفى «۳» «و من خصائصه صلّى اللّه عليه و سلّم قصة الإسراء و ما انطوت عليه من درجات الرفعة،

(____

۱) معالم القرآن فى عوالم الأكوان- أحمد محيى الدين العجوز ص ۱۵۵. (۲) محمّد- محمّد رشيد رضا، ص ۱۷۷. (۳) الشفا فى أحوال المصطفى، القاضى عياض، ج ۲، ص ۳۴۳. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۰ مما نبه عليه الكتاب العزيز و شرحته صحاح الأخبار، قال اللّه تعالى سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ .. [الإسراء/ ۱] الآية، و قال تعالى وَ النَّجْمِ إِذا هَوى [النجم/ ۱] إلى قوله لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى [النجم/ ۱۸] فلا خلاف بين المسلمين فى صحة الإسراء به صلّى اللّه عليه و سلّم، إذ هو نصّ القرآن، و جاءت بتفصيله و شرح عجائبه و خواص نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم فيه أحاديث كثيرة منتشرة». و ملخص حديث الإسراء و المعراج، كما أورده ابن قيّم الجوزية فى كتابه «زاد المعاد فى هدى خير العباد»، و الذى أخذه عن أدق الأحاديث، يقول «۱»: «ثم أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبا على البراق، صحبه جبريل عليهما الصّلاة و السلام، فنزل هناك و صلّى بالأنبياء إماما و ربط البراق بحلقة باب المسجد ... ثم عرج به تلك الليلة من البيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له فرأى هناك آدم أبا البشر فسلّم عليه فردّ عليه السّلام و رحّب به و أقرّ بنبوته، و أراه اللّه أرواح السعداء عن يمينه و أرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له فرأى يحيى بن زكريا و عيسى ابن مريم فلقيهما و سلّم عليهما فردّا عليه و رحّبا به و أقرّا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى يوسف فسلّم عليه و رحّب به و أقرّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلّم عليه و رحّب به و أقرّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فسلّم

علیه و رحّب به و أقر بنبوّته، ثم عرج به إلی السماء السادسة فلقی فیها موسی بن عمران فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته، فلما جاوزه بکی موسی فقیل له: ما یبکیک؟ فقال: أبکی لأن غلاما بعث بعدی یدخل الجنّة من أمّته أکثر مما یدخلها من أمّتی، ثم عرج به إلی السماء السابعة فلقی فیها إبراهیم فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته، ثم رفع إلی سدرة المنتهی، ثم رفع له البیت المعمور، ثم عرج به إلی الجبار جلّ جلاله، فدنا منه حتی کان قاب قوسین أو أدنی، فأوحی إلی عبده ما أوحی، و فرض علیه خمسین صلاة، فرجع حتی مرّ علی موسی فقال له: بم أمرت؟ قال: بخمسین صلاة، قال: إن أمّتک لا تطیق ذلک، ارجع إلی ربک فاسأله التخفیف لأمتک، فالتفت إلی جبریل کأنه یستشیره فی ذلک، فأشار أن نعم إن شئت. فعلا به جبریل حتی أتی به الجبار تبارک و تعالی و هو فی مکانه- و هذا لفظ البخاری فی بعض الطرق- فوضع عنه عشرا، ثم أنزل حتی مرّ

(۱) زاد المعاد فی هدی خیر العباد- ابن قیم الجوزیة، ج ۳، ص ۳۴- ۳۵. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۱ بموسی فأخبره فقال: ارجع إلی ربک فاسأله التخفیف، فلم یزل یتردّد بین موسی و بین اللّه عزّ و جلّ حتی جعلها خمسا، فأمره موسی بالرجوع و سؤال التخفیف، فقال: قد استحییت من ربی و لکن أرضی و أسلّم، فلما بعد نادی مناد: قد أمضیت فریضتی و خففت عن عبادی»، و لا شک أن هناک تفاصیل کثیرة فی الأحادیث الأخری لا حاجة لنا لروایتها هنا، لننتقل إلی التفسیرات.

۱- معجزة الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی

۱- معجزة الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی أ- التفسیر العقلی: لقد تحدّد نقاش الأقدمین من المفسرین و العلماء فی معجزة الإسراء و المعراج علی نقطتین أساسیتین و ما یتفرّع عنهما، و هما: هل کان الإسراء و المعراج بالروح و الجسد، أم کان بالروح فقط؟ و یخرج من هاتین النقطتین أن الإسراء و المعراج إذا کان بالروح أو بالمنام فلا إشکال فیه، أما إذا کان یقظة و بالروح و الجسد، فکیف یمکن تفسیر السرعة التی استخدمها الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم فی انتقاله من مکة إلی بیت المقدس ثم إلی السماوات العلی؟ فالسرعة المعروفة لدیهم کانت لا تتجاوز سرعة الحصان و الجمل، و هم یقطعون المسافة بین مکة و بیت المقدس بأربعین یوما، فکیف یستطیع الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم أن ینتقل بساعات ما یستغرقونه هم بقطعه شهورا أو أیاما؟ أما لو عرفوا سعة الکون و حدوده البعیدة التی تقاس الآن بالسنین الضوئیة لکان إنکارهم أشدّ، لاستحالة هذا الانتقال بأی واسطة معروفة. إذن، کان علی الذین یقولون إن الإسراء و المعراج قد تمّ بالروح و الجسد و یقظة لا فی المنام، أن یبرهنوا أولا علی إمکانیة وجود سرعة خارقة فی الکون تتجاوز مفهومهم عن السرعة، ثم یبرهنوا، بعد ذلک، علی وقوع الإسراء و المعراج حقیقة فی جسد النبی و روحه عبر هذه الإمکانیة النظریة؟. أما أن الإسراء و المعراج کان بالروح و الجسد، فقد ذکر المفسّرون أنّه کان کذلک بدلیل قوله تعالی أَسْری بِعَبْدِهِ، فمسمی العبد هو للجسد و الروح و لیس للروح، کما أنّه لا حاجة لأن یقول اللّه تعالی فی بدء سورة الإسراء سُبْحانَ الَّذِی فالتسبیح إنما یکون للأمور العظیمة فقط، و لو کان بالروح لما کان معجزة للرسول صلّی اللّه علیه و سلّم، کما استدلّوا علی بذلک بقوله ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی [النجم/ ۱۷] و البصر من آلات الجسد لا الروح، کذلک أن الحدیث النبوی یروی أن الإسراء کان عبر رکوب دابة البراق، و لو کان بالروح لما احتاج إلی دابة للانتقال، و استدلوا أیضا علی أنه لو کان بالروح، و مناما، لما احتاج أحد إلی تکذیبه، فالأحلام الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۲ لا تحتاج وسائط مادیة خارقة، و لو کان بالروح لما قالت له أم هانی: لا تحدّث به قومک فیکذبونک، و لما ارتدّ بعض ضعاف الإیمان لأنهم علموا أنّه یقول بأنه انتقل بجسده و روحه، و لما سمّی الصدّیق صدّیقا للحدیث المذکور سابقا. إذن، فالأساس العقلانی و اللغوی و الاعتباری و مجریات الأحداث، بعد إخبار الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم لهم و إنکارهم علیه، کان کل هذا مقنعا حقا لکی یجمع جمهور علماء المسلمین علی أن الإسراء و المعراج کان بالروح و الجسد حقیقة و یقظة لا مناما، أما مسألة السرعة الخارقة غیر المعروفة لدی القدماء فکانت هذه من أکبر القضایا التی کان علیهم أن یبرهنوا

علیها عقلیا، و من باب الإمکانیة المطلقة، لکی یمکن فهم حقیقة معجزة الإسراء و المعراج ضمن محدودیة مفاهیمهم و أفکارهم آنذاک! و لعل أکثر الذین أولوا هذه المعجزة اهتماما بتفسیرها هو شیخ المفسرین الفخر الرازی فی تفسیره الکبیر. و قد طرح الفخر الرازی المسألة معتمدا علی منطق الجواز العقلی و الإمکانیة المتاحة، یقول: «الحرکة الواقعة فی السرعة إلی هذا الحد ممکنة فی نفسها و اللّه قادر علی جمیع الممکنات، و ذلک یدل علی أن حصول الحرکة فی هذا الحد من السرعة غیر ممتنع»، و یبدأ بالبرهنة علی إمکانیة وجود هذه السرعة من خلال عدة براهین، بعضها یتعلّق بمفاهیم قدیمة لعلم الفلک، و بعضها یتعلّق بالمنطق العقلی و الکلامی، و نلخص بعض هذه البراهین العقلیة کما یلی «۱»: ۱) یری أنه کما یستبعد فی العقل صعود الجسم الکثیف من مرکز العالم إلی ما فوق العرش، کذلک یجب أن یستبعد نزول الجسم اللطیف الروحانی من فوق العرش إلی مرکز العالم، فإن کان القول بمعراج محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم فی اللیلة الواحدة ممتنعا فی العقول، کان القول بنزول جبریل علیه الصلاة و السلام من العرش إلی مکة فی اللحظة الواحدة ممتنعا. ۲) إن أرباب الملل و النحل یسلّمون بوجود إبلیس، و یسلّمون بأنّه هو الذی یتولی إلقاء الوسوسة فی قلوب بنی آدم، و یسلمون بأنه یمکنه الانتقال من المشرق إلی المغرب لأجل إلقاء الوساوس فی قلوب بنی آدم، فلمّا جوّزوا مثل هذه الحرکة السریعة فی حق إبلیس فلأن یسلّموا جواز مثلها فی حق أکابر الأنبیاء کان أولی. ۳) یستشهد الرازی بأن الریاح کانت تسیر بسلیمان شهرا إلی المواضع البعیدة، کما (______________________________ ۱) تفسیر الفخر الرازی- الفخر الرازی، ج ۲، ص ۱۴۸- ۱۵۰. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۳ ورد فی القرآن، و یستنتج أن الحسّ یدل علی أن الریاح تنتقل عند شدة هبوبها من مکان إلی مکان فی غایة البعد فی اللحظة الواحدة، إذن فالحرکة السریعة ممکنة بذاتها. ۴) إن القرآن یدل علی أن من عنده علم من الکتاب أحضر عرش بلقیس من أقصی الیمن إلی أقصی الشام فی مقدار لمح البصر بدلیل قوله تعالی قالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتابِ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ [النمل/ ۴۰] و إذا کان ممکنا فی حق بعض الناس علمنا أنّه فی نفسه ممکن الوجود. ۵) إن من الناس من یقول: الحیوان إنما یبصر المبصرات لأجل أن الشعاع یخرج من عینیه و یتصل بالمبصر، ثم إنّا إذا فتحنا العین و نظرنا إلی رجل رأیناه، فعلی قول هؤلاء انتقل شعاع العین من أبصارنا إلی رجل فی تلک اللحظة اللطیفة، و ذلک یدل علی أن الحرکة الواقعة علی هذا الحد من السرعة من الممکنات لا من الممتنعات، فثبت، بهذه البراهین، أن حصول الحرکة المنتهیة فی السرعة إلی هذا الحد أمر ممکن الوجود فی نفسه. و هکذا یستنتج الرازی أن هذه الحرکة لما کانت ممکنة فی نفسها وجب أن لا یکون حصولها فی جسد محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم ممتنعا، و الذی یدل علیه فی رأیه «أن الأجسام متماثلة فی تمام ماهیّاتها»، فلما صح حصول مثل هذه الحرکة فی حق بعض الأجسام وجب إمکان حصولها فی سائر الأجسام، و ذلک یوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحرکة فی جسد محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم أمر ممکن الوجود (فی نفسه)، و یضیف لهذا «ثبت بالدلیل أن خالق العالم قادر علی جمیع الممکنات، و ثبت أن حصول الحرکة البالغة فی السرعة إلی هذا الحد فی جسد محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم ممکن، فوجب کونه تعالی قادرا علیه، و حینئذ یلزم من مجموع المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممکن الوجود فی نفسه .. أقصی ما فی الباب أنه یبقی التعجّب إلّا أن هذا التعجّب غیر مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل فی جمیع المعجزات». و من أعجب التفسیرات التی ذکرها الآلوسی فی تفسیره عن مسألة المعراج، و ضمن إطار مذهب القدامی نفسه، ما ذکره و هو لا یؤمن به حیث یقول «۱»: «و من العجائب ما سمعته عن الطائفة الکشفیة، و العهدة علی الراوی، أن للروح جسدین: جسد من عالم الغیب لطیف لا دخل للعناصر فیه، و جسد من عالم الشهادة کثیف مرکّب من العناصر، (______________________________ ۱) روح المعانی- الآلوسی، ص ۱۰- ۱۱. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۴ و النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم حین عرج به ألقی کل عنصر من عناصر الجسد العنصری فی کرته، فما وصل إلی فلک القمر حتی ألقی جمیع العناصر، و لم یبق معه إلّا الجسد اللطیف فرقی به حیث شاء اللّه تعالی، ثم لما رجع علیه الصّلاة و السّلام رجع إلیه ما ألقاه و اجتمع فیه ما تفرّق منه، و لعمری إنه حدیث خرافة لا مستند له شرعا و لا عقلا»،

على أنّه بعد أن يعجز عن التفسير الحقيقى لهذه المعجزة، و بعد أن يحدّد المسافات التى قطعها الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى إسرائه و معراجه يعود إلى رأى لطيف ليخرج به من هذا المأزق و للاعتراف بالعجز فيقول: «و قال بعضهم أمر المعراج أجلّ من أن يكيف، و ما ذا عسى يقال سوى إن المحب القادر الذى لا يعجزه شىء دعا حبيبه الذى خلقه من نوره إلى زيارته، و أرسل إليه من أرسل من خواص ملائكته، فكان جبريل هو الآخذ بركابه و ميكائيل هو الآخذ بزمام دابته إلى أن وصل إلى ما وصل إليه، ثم تولّى أمره سبحانه بما شاء حتى حصل، فأى مسافة تطول على ذلك الحبيب الرّبّانى، و أى جسم يمتنع عن الخرق لذلك الجسد النورانى، و من تأمّل فى العين و إحساسها بالقريب و البعيد، و لو كان فاقدها، و ذكر له حالها لأنكر ذلك إنكارا ما عليه من مزيد، و كذا فى غير ذلك من آثار قدرة اللّه تعالى الظاهرة فى الأنفس و الآفاق و الواقع على جلالة قدرها الاتفاق، لم يسعه إلّا تسليم ما نطقت به الآيات و صحت به الروايات». هكذا فسّر القدامى بعقولهم و منطقهم مسألة الإسراء و المعراج، فكيف فسّرها الصوفية بروحانياتهم؟. ب- التفسير الصوفى: لقد كان تركيز الصوفية، فى تفسيرهم للإسراء و المعراج، على الجانب التقديرى الاعتبارى للرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم أكثر من الجانب التفسيرى العقلى أو العلمى خاصة، و أن الاتجاه الصوفى، كما هو معروف، له اتجاه للإغراق فى الروحانيات و الأنوار الكشفية و ما شاكل ذلك، و مع هذا فقد كان عندهم من المعانى العميقة و النكات الدقيقة ما كان يعجز عنه أكابر الفلاسفة و المتكلمين و حتى علماء التفسير، لهذا نرى ابن عربى، كما ينقل عنه الشعرانى، يقول عن الإسراء و المعراج «۱»: «ما نقل الحق تعالى محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم من مكان إلى مكان إلّا ليريه ما خصّ تعالى به ذلك المكان من الآيات و العجائب الدالّة على قدرته تعالى، من حيث وصف خاص لا يعلم من اللّه تعالى إلّا بتلك الآية، كأنه تعالى يقول ما أسريت بعبدى إلّا لرؤية الآيات لا إلىّ، (______________________________ ۱) جواهر البحار- النبهانى ج ۲، ص ۴۵، عن اليواقيت و الجواهر للشعرانى. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۵ لأنه لا يحوينى مكان، و نسبة الأمكنة إلى نسبة واحدة، و كيف أسرى بعبدى إلىّ و أنا معه حيث كان»، بل إن الصوفية يدلّلون على أن الإسراء بالجسد و الروح من خلال قولهم «إنه لما كان الاستواء على العرش تمدّحا للّه عزّ و جلّ، جعل اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم كذلك نسبة على طريق التمدّح عليه، حيث كان العرش أعلى مقام ينتهى إليه من أسرى به من الرّسل عليهم الصلاة و السّلام، و هذا يدل على أن الإسراء كان بجسمه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لو كان الإسراء رؤيا لما كان الإسراء و لا الوصول إلى هذا المقام تمدّحا و لا وقع من الأعراب فى حقّه إنكار على ذلك، لأن الرؤيا يصل الإنسان فيها إلى مرتبة رؤية اللّه تعالى، و هى أشرف الحالات، و مع ذلك فليس لها ذلك الموقع فى النفوس. إن كل إنسان بل كل حيوان له قوة الرؤيا، قال: و إنما قال صلّى اللّه عليه و سلّم، على سبيل التمدّح: حتى ظهرت لمستوى سمعت فيه صريف الأقلام. و أتى بحرف الغاية الذى هو حتى إشارة لما قلناه من أن منتهى السير بالقدم المحسوس العرش. و اللّه تعالى أعلم». و لما أراد الصوفية تفسير المعراج جاءوا بقول لطيف على لسان ابن عربى حينما قال «۱»: «و من كان مؤمنا لا ينكر المعراج و لكن وقوع السير المذكور فى مقدار ذلك الزمن اليسير يشكل عند العقل بحسب الظاهر، و أمّا عند التحقيق فلا إشكال، أ لا ترى أن فى الوجود الإنسانى شيئا لطيفا، أعنى القلب، يسير من المشرق إلى المغرب بل فى جميع العوالم فى آن واحد، و هو بديهى لا ينكره من له أدنى تمييز حتى البله و الصبيان، أ فلا يجوز أن تحصل تلك اللطافة لوجود النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقدرة اللّه تعالى، فوقع ما وقع منه فى الزمن اليسير». هكذا فسّر القدماء، علماء و مفسّرون و متكلّمة و متصوفة، معجزة الإسراء و المعراج، و نرى اختلاف منطقهم عن منطق المعجزة العلمى القائم على منطق العلم الحديث الذى يتحدّث عن الطاقة و السرعة و الكتلة و نظرية النسبية، فكيف نظر علماء العصر الحديث لهذه المعجزة!؟.

۲- معجزة الإسراء و المعراج و التفسير العلمى الحديث

۲- معجزة الإسراء و المعراج و التفسير العلمى الحديث لا شك أن محاولة تفسير معجزة الإسراء و المعراج فى إطار العلوم الحديثة و

القوانين الفيزيائية و الكيمياوية، و فى إطار علوم الفضاء و الفلك، هى محاولة قديمة

(____۱) جواهر البحار- للنبهانى ج ۲، ص ۲۵۴، عن روح البيان للبروسوى. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۶ ترجع إلى عام ۱۹۳۵ م، أى قبل أن تطرح نظريات الإعجاز العلمى، و قبل أن يلتقى العلم بالقرآن هذا اللقاء الواسع الشامل، و هذا يعنى أن هذه المعجزة كانت بمقدار ما هى مثيرة للدهشة و التعجّب بمظاهر الإعجاز العديدة فيها، كانت بنفس المقدار تشغل انتباه العلماء و المفسّرين المعاصرين، و تقف أمامهم كتحدّ علمى لقدرات الطاقة الإنسانية العلمية فى العالم كله، و إذا ما تذكرنا أن بداية القرن العشرين كانت دعوات النهضة و التحرّر و رفض الخرافات و الأفكار القدرية اليائسة التى كانت سائدة فى تفاسير القرآن القديمة، و التى تريد من الإنسان أن يؤمن بكل ما قيل و يقال له ما دام واردا كحاشية على نص القرآن الكريم، مما طمس المعالم الحقيقية للهداية القرآنية وسط غبار التراكم فى اللامعقولات القديمة، إذا ما تذكّرنا كل هذا فلن نعجب أن تكون محاولة تفسير معجزة الإسراء و المعراج، على ضوء العلوم الحديثة و قوانينها المعاصرة، من المحاولات السبّاقة لطرح فكرة التفسير العلمى للقرآن حتى قبل أن يظهر هذا التفسير بالمساحة الكافية المقنعة آنذاك. لقد كان عام ۱۹۳۵ م هو عام صدور كتاب محمّد حسين هيكل عن «حياة محمّد»، الذى حاول فيه أن يكون قريبا جدا من العقلية العلمية السائدة آنذاك فى أوروبا، حتى أن كتابه هذا كان من أدق الكتب و أعمقها و أبعدها عن الغرابة و التغريب التى كانت محشوة بها كتب السيرة النبوية دون تمحيص علمى أو تاريخى، لذا فقد كان كتابه هذا من أوائل الكتب التى حاولت أن تقدم حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم على ضوء العلوم الاجتماعية و التاريخ و علم النفس، و ما يسمى آنذاك علم الأرواح و التنويم المغناطيسى و الباراسيكولوجى ... إلخ، إضافة إلى بعض العلوم التطبيقية. فكيف فسّر هيكل معجزة الإسراء و المعراج التى وصف تفسيره لها بأنّه أول من فعل ذلك، و مدحه عليه المقدم للكتاب محمّد مصطفى المراغى؟ إن المنهج الذى أشار إليه محمّد مصطفى المراغى فى محاولة تفسير القرآن على ضوء العلم الحديث لهو جدير بالذكر حيث قال «۱»: «يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك و علم تشريح الإنسان يدلّ أوضح دلالة على شمول العلم الإلهى لدقائق الوجود، و أنا أقرّ أيضا أن العلم و الكشف عن سنن الوجود و عجائبه سيكون نصير الدين، و سيقرب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان غامضا مبهما، و ما كان فوق طاقة العقل و إدراكه من قبل، مصداقا لقوله تعالى

(____۱) حياة محمّد- محمّد حسين هيكل، ص ۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۷ سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت/ ۵۳]، و الكهرباء، و ما نشأ عنها من المخترعات، قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحوّل المادة إلى قوة، و تحوّل القوة إلى مادة، و علم استحضار الأرواح فسّر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون، و أعان على فهم تجرّد الروح و إمكان انفصالها، و فهم ما تستطيعه من السرعة فى طىّ الأبعاد، و قد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء، فأتى بشىء طريف». إنّه فعلا شىء طريف، و لكنه ليس من العلم فى شىء فى ضوء ما توصلنا إليه اليوم. يقول هيكل واصفا محاولته تلك: «و لصاحب هذا الرأى، أكثر من غيره، أن يسأل عن حكمة الإسراء و المعراج ما هى؟ و هنا موضع الرأى الذى نريد أن نبديه و لا ندرى أسبقنا إليه أم لم نسبق؟». و هكذا يبدأ هيكل فصلا خاصا بعنوان «الإسراء و وحدة الوجود» جاء فيه ما يلى «۱» «ففى الإسراء و المعراج فى حياة محمّد الروحية معنى سام غاية السمو، معنى أكبر من هذا الذى يصوّرون، و الذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمة الخصب حظ غير قليل. فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه، فى ساعة الإسراء و المعراج، وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها، لم يقف أمام ذهن محمّد و روحه، فى تلك الساعة، حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب، التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيا محدودا بحدود قوانا المحسّة و المدبّرة و العاقلة، تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم، و اجتمع الكون كله فى روحه فوعاه منذ أزله إلى أبده، و صوّره فى تطوّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير و الفضل و الجمال و

الحق فی مغالبتها و تغلّبها علی الشر و النقص و القبح و الباطل بفضل من اللّه و مغفرة، و لیس یستطیع هذا السموّ إلّا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانیۀ، فإذا جاء بعد ذلک ممّن اتّبعوا محمّدا من عجز عن متابعته فی سموّ فکرته و قوة إحاطته بوحدة الکون فی کماله، و فی جهاده لبلوغ هذا الکمال، فلا عجب فی ذلک و لا عیب فیه، و الممتازون من الناس و الموهوبون منهم درجات، و بلوغنا الحقیقۀ معرّض دائما لهذه الحدود التی تعجز قوانا عن تخطّیها .. و إذا کان القیاس مع الفارق أن نذکر، لمناسبۀ ما نحن الآن بصدده، قصۀ أولئک المکفوفین الذین أرادوا أن یعرّفوا الفیل ما هو، فقال أحدهم: إنه حبل طویل، لأنه صادف ذنبه، و قال الآخر: إنه غلیظ کالشجرة، لأنه صادف رجله، و قال الثالث: إنه

(____١) حیاة محمّد- محمّد حسین هیکل،

ص ١٣١. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ٩٨ مدبّب کالرمح، لأنه صادف سنّه، و قال رابع: إنه مستدیر ملتو کثیر الحرکۀ، لأنه صادف خرطومه، فإن هذا المثل، مقرونا إلی الصورة التی تتکون لدی المبصر من الفیل لأول ما یراه، یسمح لنا بالموازنۀ بین إدراک محمّد کنه وحدة الکون و الوجود و تصویره فی الإسراء و المعراج، حیث یتصل بأول الزّمن من قبل آدم إلی آخره یوم البعث، و حیث تنعدم نهائیۀ المکان، إذ یطل بعین البصیرة من لدن سدرة المنتهی إلی هذا المکان یصبح أمامه سدیما، و بین ما یستطیع الکثیرون إدراکه من حکمۀ هذا الإسراء و المعراج، إذ یقفون عند تفاصیل لیست من وحدة الکون و حیاته إلّا کذرات الجسم، بل کالذرات العالقۀ به من غیر أن یتأثّر بها نظامه. أین الواحدة من هذه الذرّات من حیاة هذا الجسم و من نبض قلبه و إشراق روحه و ضیاء ذهنه و امتلائه بالحیاة التی لا تعرف حدا، لأنّها تتصل من الوجود بکل حیاة الوجود؟ و الإسراء بالروح هو فی معناه کالإسراء و المعراج بالروح جمیعا سموّا و جمالا و جلالا، فهو تصویر قویّ للوحدة الرّوحیۀ من أزل الوجود إلی أبده، فهذا التعریج علی جبل سیناء، حیث کلّم اللّه موسی تکلیما، و علی بیت لحم، حیث ولد عیسی، و هذا الاجتماع الروحی ضمّت الصّلاة فیه محمّدا و عیسی و موسی و إبراهیم مظهر قوی لوحدة الحیاة الدینیۀ علی أنّها من قوام وحدة الکون فی موره الدائم إلی الکمال». و بعد هذا الوصف اللطیف و المعانی الإنسانیۀ و الروحیۀ، ینتقل الدکتور هیکل للعلم کما یفهمه، فیقول «١»: «و العلم فی عصرنا یقرّ هذا الإسراء بالرّوح، و یقرّ المعراج بالروح، فحیث تتقابل القوی السلیمۀ یشعّ ضیاء الحقیقۀ، کما أن تقابل قوی الکون فی صورة معینۀ قد طوع (لمارکونی)، إذ سلّط تیارا کهربائیا خاصا من سفینته التی کانت راسیۀ بالبندقیۀ، أن یضیء بقوة الأثیر مدینۀ سدنی فی أسترالیا. و فی عصرنا هذا یقرّ العلم نظریات قراءة الأفکار و معرفۀ ما تنطوی علیه، کما یقرّ انتقال الأصوات علی الأثیر بالرادیو و انتقال الصور و المکتوبات کذلک، مما کان یعتبر فیما مضی بعض أفانین الخیال. و ما تزال القوی الکمینۀ فی الکون تتکشّف لعلمنا کل یوم عن جدید، فإذا بلغ روح من القوّة و من السلطان ما بلغت نفس محمّد، فأسری به اللّه لیلا من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی الذی بارک حوله لیریه من آیاته، کان ذلک مما یقرّ العلم، و کانت حکمۀ ذلک هذه المعانی القویۀ السامیۀ فی جمالها و جلالها، و التی تصوّر الوحدة الروحیۀ، و وحدة الکون فی نفس محمّد تصویرا

(____١) حیاة محمّد- محمّد حسین هیکل،

ص ١٣١. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ٩٩ صریحا یستطیع الإنسان أن یصل إلی إدراکه إذا هو حاول السموّ بنفسه عن أوهام العاجلۀ فی الحیاة، و حاول الوصول إلی کنه الحقیقۀ لیعرف مکانه و مکان العالم کله منها». هکذا یفسّر هیکل الإسراء و المعراج بالروح فی إطار علومه و علوم عصره، أما إذا قیل له إن الإسراء کان بالجسد و الروح فلا یجیب إلّا بالعبارات الغامضۀ نفسها فیقول «١»: «و أحسبک لو سألت الذین یقولون بالإسراء بالروح فی هذا، لما رأوا فیه عجبا بعد الذی عرف العلم فی وقتنا الحاضر من إمکان التنویم المغناطیسی للتحدّث عن أشیاء واقعۀ فی جهات نائیۀ، فما بالک بروح یجمع وحدة الحیاة الروحیۀ فی الکون کله، و یستطیع بما حباه اللّه من قوّة أن یتصل بسرّ الحیاة من أزل الکون إلی أبده». و هکذا نخرج من هذه المحاولۀ المسمّاة «علمیۀ» بأیدی فارغۀ، و الأسهل تفسیر الإسراء و المعراج بالرّوح عن طریق المتصوّفۀ المسلمین، من الأنفس، و لکنی أری أن محاولات تفسیر الإسراء

و المعراج بالجسد، التی ذکرها الفخر الرازی فی تفسیره، أکثر قوة و إقناعا، بل و علمیّة، ممّا ذکره الدکتور هیکل فی محاولته، علما أنّ علم الأرواح و التنویم المغناطیسی، بعد هذا الزمن الیسیر من عمرهما، کشف الزیف و الکذب عنهما و عن مصداقیتهما. علی أن هذه المفاهیم و المعانی لم تقف عند هذه الحدود الساذجة، بل کل یوم تأتینا تحلیلات جدیدة و معان جدیدة و محاولات تفسیر علمیة أو شبه علمیة، و سنقتصر علی ثلاثة نماذج ممن حاول أن یفهم معجزة الإسراء و المعراج فی إطار المفاهیم و المعانی التی یمکن استنتاجها منها. النموذج الأول، هو السید سمیح عاطف الزین فی کتابه «خاتم النبیین محمّد»، و الذی یعتبر أن معجزة الإسراء و المعراج «۲» «جاءت لتکون ثانی حدثین اثنین فی تاریخ الأنبیاء و المرسلین الذین یحملون رسالات السماء إلی الأرض، حیث تم الاتصال المباشر من الخالق سبحانه و تعالی مع اثنین من هذه النخبة المختارة، حیث کان الاتصال الأول عند ما کلّم اللّه تعالی نبیه موسی علیه السّلام علی جبل الطور فی سیناء، و هذا هو الاتصال الثانی عند ما أسری اللّه سبحانه و تعالی بمحمّد صلّی اللّه علیه و سلّم حتی بلغ سدرة المنتهی لیکون علی قاب قوسین أو أدنی، و لیری و یسمع و یتحدّث فی عروجه بما لم یره و لم یسمع به أو یتحدث عنه غیره من الخلق أجمعین». و بعد أن

(____ ۱) حیاة محمّد- محمّد حسین هیکل، ص ۱۳۲. (۲) خاتم النبیین محمّد- سمیح عاطف الزین، ج ۲ ص ۶۳۷. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۰۰ یؤکد سمیح الزین علی أن الإسراء و المعراج کان بالروح و الجسد، و لا مجال لتأویل النص القرآنی الصریح بما ینافیه، أو بما هو خرافة، بعد کل هذا یفسّر قناعته تلک بقوله «۱»: «إن القدرة الإلهیة قد أثبتت لبنی الإنسان، فی أکثر من زمان و فی حیاة الناس العادیین، أن فی حیاة النبیین و المرسلین لا شأن للقوانین و النّظم التی یعرفها أبناء البشر، لأنّها تقول للشیء (کن فیکون)، و هذه الإرادة المطلقة التی خلقت هذا الکون العظیم، بما فیه من عوالم و آفاق، هی نفسها و وحدها التی نفّذت الإسراء و المعراج، و لا یمکن للعقل البشری أن یستغرب وقوع هذا الحدث العظیم عند ما یتذکّر بأن الإرادة الإلهیة قد أعطت للنبی سلیمان علیه السّلام ملکا لم یعط لأحد من قبله و لا من بعده، فقد سخّرت له الریاح ذلولا یمتطیها علی بساط فتحمله حیث أراد فی جوانب الکرة الأرضیة، و قد جعلت له الجن خدما و عبیدا یأتمرون بمشیئته». و بعد أن یقارن الزین بین هذه المعجزة و معجزات الأنبیاء سلیمان و موسی و عیسی و إبراهیم و نوح، یعود إلی الاستنتاج «۲» «فما العروج بالشکل الذی سمعت إلّا للدلالة علی إمکان الخروج من نطاق هذه الکرة الأرضیة، التی تسبح فی الفضاء الذی یضمّ الملایین من أمثالها من الکواکب و الشموس و المجرّات الهائلة التی تکبرها بملایین ملایین المرات، و ما هو أیضا إلّا إشارة إلی قدرة اللّه الخارقة لإیقاظ الغافلین، و لجعلهم یتفکّرون فی خلق السموات و الأرض و فی أنفسهم، یحیون علیها بتعاقب اللیل و النهار، إن هی إلّا آیة صغری من آیات اللّه العظمی، و ما هو أخیرا إلّا بمثابة إعجاز و إلفات نظر العالمین- سائر العالمین- بالأمس و الیوم و فی المستقبل، إلی أنه إذا تطورت وسائل السفر و الانتقال فإن الناس سیجترحون العجائب، لأن الإسراء و المعراج تم بواسطة نقل إلهیة اخترقت جاذبیة الأرض و طبقات الأثیر، و طوت المسافات فانعدمت أمامها المسافات، و طوت الزمن فانعدم أمامها الزمن، الذی لا دلیل علیه إلّا تعاقب اللیل و النهار و طلوع القمر هلالا فی یوم سمیناه أول الشهر، و اختفاؤه فی یوم سمّیناه آخر الشهر، و لا دلیل علیه إلّا تقسیم فترات بیاض النهار إلی ساعات تتحدّد بطلوع الشمس و مغیبها. هذا و قد حققت معجزة اللّه العظیم لنبیه الکریم فی رحلة عظیمة کانت بالأمس القریب غریبة عجیبة، و صارت الیوم- و بعد غزو القمر مرارا و تکرارا- أقرب إلی الذهن و المعقول، و إن کانت تجد ذاتها و واقعها مدهشة مذهلة کأکثر معجزات الأنبیاء و الرسل فی عالم التقدیر و الاعتبار.

(____ ۱) خاتم النبیین محمّد- سمیح عاطف الزین، ج ۲ ص ۶۳۸. (۲) المصدر السابق، ج ۲ ص ۶۳۹. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۰۱ و إذا کان للعقل الإنسانی أن یفهم بعض مدلولات المعراج فإنه، بالإضافة إلی اطمئنان نفس محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم و أنس قلبه للبرهان علی الخروج من نطاق هذا الکوکب الأرضی الذی یسبح فی الفضاء، لیعرف الذین ینکرون البعث بأنهم غیر باقین فی هذه الأرض بعد

انحلال أجسامهم، و أنّهم لا شک مبعوثون، جسدا و روحا و نفسا، فی مکان ما من عوالم اللّه تعالی التی لا یعلمها إلّا هو سبحانه، و لکی یتفکّروا فی خلق السماوات و الأرض و ما یحیط بهنّ. فهذه الدلالات تعبّر عن الإسراء، أی الانتقال من مکان إلی مکان، بواسطهٔ لا- یعرفها البشر، و عن المعراج بنفس الواسطهٔ التی تتحلّل من قوانین الجاذبیهٔ و الأبعاد و الأعماق و المسافات، و ما إلیها من القوانین التی تحکم تصرفات بنی البشر، و التی لا شأن لها عند إرادهٔ اللّه السنیهٔ التی تقول للشیء کن فیکون. و إذا کانت الإرادهٔ الإلهیهٔ قد تجلّت و جعلت من الإسراء و المعراج وسیلهٔ کشف لإحدی وسائل المواصلات التی تفرض علی الإنسان الإذعان لها و الرضوخ لحکمها فإنها، و هی إرادهٔ اللّه، قد جعلتها فتنهٔ للناس لتثبت فی الروع أن الإنسان، مهما بلغ من العلم و المعرفهٔ، عاجز عن الوصول إلی علم اللّه، و لکنه مدعو فی کل وقت للتوجّه نحو هذا العلم، و إلّا فقد میزته التی خصّه اللّه تعالی بها عن سائر المخلوقات قلیلا- عاجلا أو آجلا-، للبحث عن الوصول لبعض تلک العوالم لیصل إلی معرفهٔ عظیم صنع اللّه و قدرته، علی أنه و إن قدّر للإنسان أن یفقه سرّ معجزهٔ الإسراء و المعراج أو لم یقدر، و غالب الظن أن هذا السّر ما زال فی جوانب کثیرهٔ منه مغلقا علی بنی البشر، فإنّها تظلّ الحدث العظیم الذی لا یمکن إنکاره و لا التنکّر له ما دام القرآن الکریم قد أثبته و أکّده بقوله تعالی وَ النَّجْمِ إِذا هَوی (۱) ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی (۲) ... [النجم/ ۱، ۲]، و من هنا لم تکن حادثهٔ الإسراء و المعراج المعجزهٔ التی أرید منها قهر الناس علی الاعتقاد بصدق نبوهٔ محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم کما کان یحدث للأنبیاء السابقین، و إلّا لکانت تلک الحادثهٔ قد حصلت فی الظروف الحالکهٔ الصعبهٔ التی کان یعیشها النبیّ و المسلمون معه، و لا سیما المستضعفون منهم، بل کانت من أجل التکریم لشخص النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم و الإیناس له، و من غیر أن تعطّل المنهج العقلی الذی اشترعه القرآن». هکذا فهم السید سمیح عاطف الزین واقعهٔ و معجزهٔ الإسراء و المعراج، و هو یضعنا علی أبواب التعامل مع مفردات و مکتشفات العلوم و لکن من بعید، و لا یدخل إلی التفاصیل الدقیقهٔ للقضایا العلمیهٔ. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۰۲ أما التفسیر الأکثر قبولا منه، و الذی یلمس الجوانب العلمیهٔ أکثر، إضافهٔ إلی الجوانب العقلیهٔ و المنطقیهٔ، هو ما طرحه الشیخ محمّد متولی شعراوی، و سنحاول تلخیص رأیه بشکل دقیق، مع مقتطفات من نصوص أقواله و کلماته العمیقهٔ. و قبل أن یبدأ شعراوی فی تفسیره لآیهٔ الإسراء، یعرض لموقع هذا الحدث و أثره فی الدعوهٔ الإسلامیهٔ، لکی یزنه بمیزان الحدث التاریخی، فهو یؤکد «أن حدث الإسراء و المعراج یعتبر حدثا ضخما من أحداث الدعوهٔ الإسلامیهٔ، سبقته البعثهٔ و جاءت بعده الهجرهٔ». إذن فهو یزنه بمیزان البعثهٔ و الهجرهٔ، و بعد أن یتحدّث عن أهمیهٔ کون هذه المعجزهٔ کانت «نتیجهٔ لجفوهٔ الأرض لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و نتیجهٔ لفقد النصیر، و نتیجهٔ لفقد الحامی، فاللّه سبحانه و تعالی شاء أن یجعل لرسول اللّه هذه الرحلهٔ العلویهٔ حتی یثبت له تکریمه، و حتی یثبت له أن فی اللّه عوضا عن کل فاقد، و أن الملکوت سیحتفی به حفاوهٔ، و یمسح عنه کل عناء هذه المتاعب، و سیعطیه شحنهٔ قویهٔ لتکون أداته فی منطلقه الجدید بإذن اللّه». بعد ذلک یبدأ شعراوی بتفسیر آیهٔ الإسراء بتفسیر کلمهٔ سُبْحانَ و یقول «۱»: إن معنی سبحان اللّه أن اللّه منزّه فی ذاته و فی صفاته و فی أفعاله، فإذا صدر فعل قال اللّه إنه صدر منّی، فیجب أن أنزهه أنا عن قوانین البشریهٔ، و ألا أخضع فعل اللّه إلی قانون فعلی، و لذلک استهل السورهٔ بقوله سُبْحانَ حتی یکون أول ما یقرع الإنسان لهذا الحدث العجیب الغریب، الذی تقف فیه العقول سُبْحانَ أی تنزیه، فإذا قال اللّه سُبْحانَ أی تنزیه لفعلی عن أفعالکم، معنی ذلک أن قانون اللّه فی الفعل لیس کقانوننا فی الفعل، ثم بعد ذلک أَسْری به، فاللّه هو الذی أسری و محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم هو الذی أسری به، لما ذا لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا أی الإسراء کان لعلهٔ دافعهٔ هی لیریه الآیات، و لما ذا یریه الآیات لأنه هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ. و هکذا، یستنتج شعراوی أن اللّه سمع الإیذاء الذی أوذی به رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم، و قد رأی اللّه ما تعرّض له من الجفاء و الاستهزاء، و من السخریهٔ و من الإهانهٔ، کل ذلک برؤیهٔ و مسمع من اللّه، فحین رأی اللّه ذلک و سمع أراد أن یریه الآیات، فأسری به. ثم یأتی شعراوی إلی ما أسماه قانون الفاعل، حیث یقول بأن اللّه بقانونه أسری بعبده إلیه، فلا یصحّ أن نؤاخذ محمّدا صلّی اللّه علیه و سلّم بفعل فعله اللّه به، لأن محمّدا لم یقل أنا سریت، لکی نقول له کیف سریت بهذه السرعهٔ و نحن نضرب أکباد الإبل شهرا (______________________________ ۱) القرآن الکریم معجزهٔ و

منهج- محمّد متولی شعراوی، ص ۱۴۵. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۰۳ و تفعلها أنت بلیلة. إذن فالاعتراض علی الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم خطأ، فلیس هو الفاعل، و إنما هو اللّه، و فعل اللّه یکون حسب قوة اللّه، و قوة اللّه تلغی قانون فعل و قوة البشر المحدودة. و هکذا بنی شعراوی سرعة الإسراء بقوة اللّه علی القول «۱» «المسافة تتناسب مع القوة تناسبا عکسیا، فکلما زادت القوة قلّت المسافة»، و القوة التی فعلت هی قوة اللّه تعالی، لذا نجد النتیجة (لا زمن). إذن، کلما کانت قوة الفاعل، إذا کان بشریا- سیارة طائرة أو صاروخ- فإن المسافة تتناسب عکسیا مع هذه القوة، و تختصر الزمن حسب قوة الناقل، فأما إذا کانت هذه القوة خارقة، و هی قوة اللّه، إذن فإن المسافات تلغی و یلغی معها الزمن اللازم لقطعها. هکذا یفسّر شعراوی قدرة اللّه فی الإسراء بتعاملها مع الزمن، کما أنه یستنتج، من اعتراض الکافرین علی إمکانیة الإسراء، أنّه کان حقیقة و بالجسد لا بالمنام بقوله «فالکافرون بتعنّتهم أمام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم خدمونا خدمة کبیرة الآن، لأننا نقول لو کانت رؤیا منامیة لما ناقش فیها أحد، لأن أی واحد یقص علیک رؤیا، فقانون المرائی فوق قانون المادة الیقظة، فما دام قد ناقشوا فیها و وقفوا فیها هذه الوقفة فهم قد فهموا أنّها یقظة و بالجسم و الروح». و إذا کان الغالب علی تحلیل شعراوی الجانب الروحی، و یعتمد علی تحلیل مفردات اللغة القرآنیة و ما یمکن أن تعنیه فی منتهی الاحتمال للمعنی، إلّا أن الإسراء و المعراج بقی غامضا خاصة فی جانب السرعة و المسافة أو الزمن و المکان، و لما کان القرآن العشرون قد وصل إلی مفاهیم جدیدة جدا و غیر مطروقة لدی القدماء و المحدثین، فلنحاول أن نأخذ آخر مفردات العلم المعاصر حول هذه المفاهیم، لنری إمکانیة تفسیر معجزة الإسراء و المعراج علی ضوء النظریة النسبیة لأنشتاین، و خاصة فی مجال السرعة و الزمن و المادة، فکیف تفهم هذه الرحلة الإلهیة علی ضوء هذه المفردات العلمیة؟ و حینما نصل إلی الحدیث عن أکبر سرعة معروفة فی العلم الحدیث، لکی نقیس بها سرعة حرکة انتقال الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و سلّم علی أحدث الاکتشافات العلمیة المعاصرة، فإننا نجد أن سرعة الضوء، البالغة ثلاثمائة ألف کیلومتر فی الثانیة، هی المقیاس المستخدم و المکتشف فی فضاء السرعة، أما ما توصل الإنسان إلی تحقیقه الآن من سرعة فی سفن الفضاء الحالیة فإنّها لا تزید علی أربعین ألف کیلومتر فی (____) القرآن الکریم معجزة و منهج-

محمّد متولی شعراوی، ص ۱۴۷. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۰۴ الساعة، فأین هذه السرعة من السرعة التی انطلق بها جبریل علیه السّلام، و معه محمّد علیه الصّلاة و السلام فوق السفینة الکونیة العظمی لیلة الإسراء و المعراج؟ هکذا یبدأ الدکتور عبد العلیم عبد الرّحمن خضر فی کتابه «الإنسان فی الکون بین القرآن و العلم» فی الحدیث عن معجزة الإسراء و المعراج، علی ضوء النظریة النسبیة لأنشتاین، و سنستعرض آخر ما توصّل إلیه، علما أنه یعتمد عدّة مصادر حدیثة علمیة، و یستشهد بأقوال علماء مسلمین و أجانب فی هذا الإطار. و حینما ینطلق الدکتور عبد العلیم من مفردة أن الناس عادة «۱» «حینما یتحدّثون عن معجزة الإسراء و المعراج یتحدّثون عن جانبها الذی یتعلّق بقطع المسافات و طی الزمان و العروج من سماء إلی سماء فی لحظات لا تعادل بالأیام و الشهور، و إنما بالساعات و الدقائق»، لیصل إلی القول «إذن، فالرحلة رحلة کونیة تفوق کل المقاییس التی عرفها أو سیعرفها البشر» فکیف فسّر، علی ضوء العلم الحدیث، هذه المعطیات؟ یبدأ الدکتور من مفردة أن البراق کان یسیر بسرعة البرق- و قد یکون سمّی براقا لهذه الخاصیة- فیری أن البرق ضوء، و سرعة الضوء ۱۰۸۰ ملیون کیلومتر فی الساعة، فهل کانت سرعة البراق تساوی سرعة الضوء فقط؟ و هل تکفی عدة ساعات للسفر إلی سدرة المنتهی ثم العودة إلی الأرض؟. و بعد أن یورد الدکتور تفسیر قوله تعالی فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّیْلِ وَ ما وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْکَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹) [الانشقاق/ ۱۶- ۱۹] بمعنی «لترکبن یا محمّد سماء بعد سماء»، کما فسّرها الطبری و ابن کثیر، یقول «۲»: «و کان رکوب السماء بعد السماء لیلة الإسراء و المعراج، و لا بد أن الطبق الذی رکبه الرسول الکریم و معه جبریل کان أسرع من الضوء نفسه، نظرا لضخامة الکون الذی تمثّله السموات، سماء بعد سماء، تتمثّل بتلک الضخامة فی قوله تعالی تَعْرُجُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج/ ۴]. و هکذا یعود الدکتور إلی القول «۳»: «إن آیة الإسراء لم تذکر أن الرسول الکریم محمدا، علیه الصّلاة و السّلام، کان محمولا علی شیء، إنّه کان یسبح فی

الفضاء بقدرة اللّه تعالى التى لا حدود لها، بعد أن أصبح حقيقة كونية فى غير حالتها الأرضية الناقصة. فإن كان قد قيل إنه ركب البراق، فقد يكون المقصود البرق أو أيّة (____١) الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم– د. عبد العليم عبد الرّحمن خضر، ص ٣٢٢. (٢) المصدر السابق، ص ٣٢۴. (٣) المصدر السابق، ص ٣٢۶. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ١٠۵ قوة كهربية، و لا يمكن فى حالة إسراء اللّه بعبده أن تجرى أحكام الحواس و لا أحكام المادة». و بعد أن يستشهد الدكتور بوجهة نظر الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه دلائل النبوة، و رفضه لمفهوم السلالم للعروج إلى السماء، مستندا إلى أن العلم الحديث أثبت «أن المادة الصلبة مجرّد كهارب فى رتبة اهتزاز معينة»، و أن الذين يريدون أن يفسّروا الإسراء و المعراج بالتصوّر المادى بالمطيّة للإسراء و السلالم للمعراج بسبب جهلهم هذه الحقيقة التى لو عرفوها «لما خدعتهم حقيقة المادة الصلبة التى تشبّثوا بها فى الإسراء على البراق و المعراج على السلالم، و لأمكنهم أن يتصوّروا إمكان الإسراء بلا مطية و الصعود إلى السماء بلا سلالم». بعد هذا، يعود الدكتور عبد العليم ليناقش مسألة الزمن التى أنكر المشركون حدوث الإسراء بناء عليها، فيقول «إننا إذا تخلّصنا من هذه الأرض المادية و احتللنا مكانا مستقلا لا يربطنا بجاذبيتها و لا بقوانينها، فسوف لا نشعر بالزمن الذى تعوّدنا عليه و لا يصبح للعمر لدينا أى معنى، لأننا لن نعرف سوى اللازمن، أى الخلود، لا ماضى، لا مستقبل، و لكن الحاضر وحده هو الذى نعيش فيه»، و يستنتج الدكتور بأن رحلة الإسراء و المعراج فى واقعها إنما هى «رحلة كونية إلهية لا يمكن حسابها زمنا أو بعدا أو وسيلة بحسابات البشر، إنها رحلة فضائية كاملة تخطّت أبعاد الزمان و المكان من مكّة إلى بيت المقدس، و تمّت الرحلة إلى السماوات العلى و بقايا دفء فراش الرّسول موجودة». و بعد أن يقارن الدكتور بين رحلة الإنسان إلى القمر و غزوه للفضاء بسفن فضائية تحمل أجهزة إلكترونية للدراسات العلمية عن المريخ و الزهرة و المشترى، و مسألة الإسراء و المعراج، يصل إلى أن كل هذه الاكتشافات لا تفسّر روعة السرعة التى تمّت بها رحلة الإسراء و المعراج، لذا نراه يعتقد «أن السفينة الإلهية، التى حملت محمّدا عليه الصلاة و السّلام و جبريل، قد اخترقت دوائر بلايين المجرات حتى تصل إلى السماوات العلى و سدرة المنتهى». و للدلالة على استحالة تفسير هذه الرحلة الكونية الإلهية يتعرّض الدكتور لشرح مساحة الكون الكبير كما اكتشفه علم الفضاء و الفلك حديثا، و الذى حتى الضوء بسرعته الخرافية يحتاج إلى ملايين السنين الضوئية لكى يقطعه، فكيف قطعه الرّسول الكريم فى ساعات معدودة؟ إن الإعجاز الحقيقى للإسراء و المعراج يظهر فى العلم الحديث حينما نعرف مساحة الكون اللانهائية كما اكتشفها العلم الحديث. فإذا كان الكفار قد اعترضوا الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ١٠۶ على الإسراء، و هو مسيرة ساعة فى الطيارة الآن، فكيف سيكون إنكارهم لو عرفوا أبعاد السنين الضوئية لمساحة الكون الممتد عبر مجراته و سدمه و نجومه؟ لذا فإن الدكتور يشرح هذا الحجم الرهيب للسماوات بقوله «و يكفى دلالة على حجم السماوات الرهيب أن نقول إن العلماء، خلال نصف القرن الأخير، ابتكروا مناظير كبيرة كشفت آلافا من المجموعات الكونية، تتكوّن كل مجموعة من آلاف السدم، كل سديم يضم عشرات الملايين من النجوم و الأجرام السماوية»، و يرى علماء الفضاء أن نصف هذه السدم التى تسبح فى الكون إنما هى أعضاء فى مجموعات تشبه الكرة يبلغ قطرها مليونين من السنين الضوئية، فإذا كان الضوء يسافر خلال ساعة مسافة قدرها ١٠٨٠ مليون كيلومتر، فكم تكون المسافة التى يقطعها فى اليوم و الشهر ثم السنة الواحدة؟ ثم كم هو رهيب حجم مجموعة السدم التى يبلغ قطرها مليونى سنة ضوئية؟ إن هذه المجموعة واحدة من بلايين السدم التى تنتشر فى أرجاء الكون الفسيح، و من هذه المجموعات مجموعة تسمى (كوما) تبعد عن سديمنا بحوالى ۴٠٠ مليون سنة ضوئية، و هى مجموعة ضخمة من السدم فى مركزها، و هى تسبح جميعا فى صورة تشبه الكرة و يقول الفلكيون «١»، إن سدما جديدة دائمة التكوّن قرب المركز، أو إن شئت قل إن الكون فى تمدد مستمر و اتساع دائم، و هناك حشود كروية تظهر فى المناظير ككرات ضخمة هائلة تشبه المجرات و لكنها أضخم منها حجما، و اكتشف عدد أقربها إلينا اثنتان هما سحابتا ماجلان الصغرى، قطرها يخترقه الضوء بسرعة ١٠٨٠ مليون كيلومتر فى الساعة لمدة خمس و عشرين ألف سنة ضوئية، و الكبرى يخترقه الضوء (أى سفينة تسير بسرعة

الضوء) فى مدة اثنين و ثلاثين ألف سنة ضوئية ... و إذا كانت هذه صفحة من مساحة الكون المكتشف حتى الآن و هو يتسع فى كل لحظة و يتمدد و يخلق مجرات جديدة، لذا فإن الدكتور يعتقد «أن الأحسن احتمالا لتصور سرعة السفينة الإلهية، التى قامت بتلك الرحلة الكونية الرهيبة خلال جزء من الليل، هو تسخير قانون النسبية لحمل و إطلاق و عودة المركبة الفضائية الإلهية البراق»، أى أنه لما كان قد ثبت من نتائج قانون النسبية الرياضية ما معناه أنّه لو أتيحت لكائن أو جسم ما سرعة أكبر من سرعة الضوء لانمحت أمامه المسافات، مهما عظمت، و يقطعها فى زمن لا يذكر. و بعد أن يشرح الدكتور مفهوم أنشتاين للزمن، الذى يعتبره ليس حقيقة قائمة

(______________________________١) الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم- د. عبد العليم عبد الرّحمن خضر، ص ۳۳۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۷ بذاتها و إنما هو من خواص المادة، و أن المستقبل قد يتصل بالحاضر، و قد يلحق بالماضى، لأنه فى كل لحظة نحن نقتطع من المستقبل و نضمه إلى الماضى، فلا ينقص هذا و لا يزيد هذا، لأن كلا منهما لا نهائى، و أن المستقبل يلتف على شكل دائرة، و بذا يدخل فى الماضى، إذ أن الدائرة علامة أبدية. و بناء على هذه النظرية تكون الظواهر التى تمر بنا بسرعة الضوء هى تلك التى اعتدنا أن نسميها إشعاعا، أما الأحداث المجسّمة التى تسير ببطء شديد فقد اعتدنا أن نسميها مادة، أو بحسب تعبير أنشتاين إن المادة هى عقل أو فراغ أو فضاء نقصت سرعته عن السرعة الطبيعية للضوء و هى ۳۰۰ ألف كيلومتر فى الثانية، و لو أن هذه المادة عادت تتذبذب بسرعة الضوء لاختلفت و لم تعد تدركها حواسنا. و هكذا نرى أنه فى نظرية النسبية أن الأشياء تبدو لراصد يسير بسرعة الضوء، إذا كانت تسير معه تبدو مادة صلبة، أن الأشياء التى تمر به بسرعة الضوء فتكون شعاعا إذا كان هو واقفا. من خلال جميع هذه المفاهيم و المعلومات العلمية نرى أن رحلة «كهذه أخذ فيها جبريل (و هو من نور) بيد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عرج به إلى السماء الدنيا، ثم الثانية ثم الثالثة فالرابعة فالخامسة فالسادسة ثم السابعة ثم إلى سدرة المنتهى، رحلة كهذه قطع فيها جبريل و صحبه بلايين البلايين من السنين الضوئية فى بضع ساعات من الليل، حسب مقاييسنا الأرضية، لا بدّ أن تكون السرعة و الوسيلة غير ما يعرف البشر، و معنى ذلك أن الرسول الكريم عليه الصّلاة و السّلام، و معه ملك الوحى جبريل عليه السّلام، قد عرج بهما فى زمن لا يذكر بسرعة أعظم من سرعة الضوء، و التى لم يتوصّل إليها البشر بعد، بل لا يستطيعون مجرد التفكير فى كنهها رغم أن العلم و العلماء عرفوا أنّها موجودة فحسب». إذن، فعلم البشر مهما تقدم فلن يصل إلى سر السرعة الرهيبة التى انطلقت بها سفينة الفضاء الإلهية. إنها رحلة المعراج حيث تجاوز الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم الكون كله، و كان عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. هكذا يصل الدكتور عبد العليم إلى أن كل العلوم المعاصرة تعجز عن تفسير الإسراء و المعراج، و لعل آخر ما يكتشفه الدكتور من هذه الرحلة هو «إنه لمن المذهل حقا أن يذكر القرآن الكريم أسفار الفضاء كلها على أنّها تتم فى مسارات منحنية و ليست فى خطوط مباشرة مستقيمة، يتضح ذلك فى جميع آيات (العروج) الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۸ التى ذكرها اللّه سبحانه و تعالى فى القرآن الكريم، نجد دائما أن اللّه سبحانه قد عبّر فى كتابه الكريم عن السبح فى الفضاء أو الارتفاع فى السماء بكلمة معراج أو عرج، و فى ذلك كشف هام». إذن، فالإسراء و المعراج سيبقى المعجزة الخالدة التى تتحدّى علم العلماء و اكتشاف المكتشفين، لأنها منتهى الاحتمال العقلى و النظرى، و ستبقى تتحدث للعالم بمعطياتها الخارقة حتى تقوم الساعة، كما ستبقى «آيتان من آيات اللّه فى الآفاق، و إشارة إلى قدرته المطلقة و انفراده وحده سبحانه بالخلق، و لمس لجوانب الحقيقة العلمية التى تؤكّد ركوب الإنسان طبقا بعد طبق، أو أطباقا متعددة المراحل، و على البشر جميعا أن يعلموا أن كل ما وصل إليه الإنسان من وسائل الركوب، ابتداء من الناقة إلى الطبق، من صنع اللّه تعالى، يتمثّل فى قوله تعالى وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ، فإذا كانت الفلك تسبح فى البحار فإن الأطباق و الطائرات تسبح فى الهواء، و فوق المادة الكونية التى تتخلل الأجرام السماوية، و بالقياس يمكن القول إن الفلك «السفن» و مثلها الطائرات و سفن الفضاء، إنّها فلك هوائية تسبح فى الهواء و الفضاء سبحا هادئا كأنّها تطفو على صفحة الماء». و هكذا تبقى المعجزة الخاصة الفردية للرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم، تتحدّث لهذا العصر المغرور بمعلوماته، و تكنولوجيته و فرضياته العلمية بمنطق الخارقية التى لا تصل إلى حافاتها أى قدرة

إنسانیة مهما وصلت فی التقدم العلمی، و مهما تطوّرت وسائل مواصلاتها و انتقالها، و هذا یعنی أن عصرنا له معجزته أیضا، و له إعجازه، و أن خاتم النبیین لم یمض و یدع العالم عند حدود معجزاته فی زمنه، بل لا زال یتحدث إلیهم داعیا إلی اللّه بمعجزاته، و سیبقی ما دام لا نبیّ بعده، دلیل الخلق إلی اللّه حتی قیام الساعة. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۰۹

المصادر و المراجع

المصادر و المراجع ۱- الشفا فی أحوال المصطفی: القاضی عیاض الأندلسی، ط ۱۹۸۶، دار الفیحاء، الأردن. ۲- مختصر تفسیر ابن کثیر: محمد علی الصابونی، ط ۱، مکتبة جدة. ۳- الدر المنثور فی التفسیر بالمأثور: السیوطی، ط ۱۹۸۳، دار الفکر، بیروت. ۴- الإیمان و العلم الحدیث: محمد حسین الأدیب، ط ۱۹۵۵، النجف. ۵- إعجاز القرآن: الباقلانی، ط ۱۹۸۶، مؤسسة الکتب الثقافیة، بیروت. ۶- تفسیر ابن تیمیة- التفسیر الکبیر: ابن تیمیة، ط ۱۹۸۸، دار الکتب العلمیة، بیروت. ۷- القرآن معجزة و منهج: محمد متولی شعراوی، ط ۱۹۸۴، دار الندوة، بیروت. ۸- المعجزة القرآنیة: د. محمد حسن هیتو، ۱۹۸۹، مؤسسة الرسالة، بیروت. ۹- علم أصول الفقه: عبد اللّه خلاف، ط ۸، دار القلم. ۱۰- هذا هو الإسلام: محمد متولی شعراوی، ط ۱۹۸۷، الدار المصریة للنشر، مصر. ۱۱- تطور تفسیر القرآن: د. محسن عبد الحمید، ط ۱۴۰۸، بغداد. ۱۲- الفلسفة القرآنیة: عباس محمود العقاد، المکتبة العصریة، بیروت. ۱۳- الفکر الدینی فی مواجهة العصر: د. محمد عفت الشرقاوی، ط ۱۹۷۹، دار العودة، بیروت. ۱۴- التاج الجامع للأصول: منصور علی ناصف، ط ۱۹۶۲، دار إحیاء التراث العربی. ۱۵- تفسیر مفردات القرآن: سمیح عاطف الزین، ط ۱۹۸۴، دار الکتاب اللبنانی، بیروت. ۱۶- أصول التفسیر و قواعده: خالد عبد الرحمن العک، ط ۱۹۸۶، دار النفائس، بیروت. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۱۰ ۱۷- معترک الأقران فی إعجاز القرآن، السیوطی، ط ۱۹۸۸، دار الکتب العلمیة، بیروت. ۱۸- نحو منهج لتفسیر القرآن: محمد الصادق عرجون، ط ۱۹۷۷، الدار السعودیة للنشر و التوزیع، جدة. ۱۹- شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العصریة للقرآن الکریم: د. عبد المتعال الجیری، ط دار الاعتصام. ۲۰- الإنسان فی الکون بین القرآن و العلم: د. عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ط ۱۹۸۳، عالم المعرفة، السعودیة. ۲۱- القرآن تفسیر الکون و الحیاة: محمد العفیفی، ط ۱۹۸۶، ذات السّلاسل، الکویت. ۲۲- معالم القرآن فی عوالم الأکوان: أحمد محیی الدین العجوز، ط ۱۹۸۷، دار الندوة الجدیدة، بیروت. ۲۳- محمد رسول اللّه: محمد رشید رضا، ط ۱۹۷۵، بیروت. ۲۴- زاد المعاد فی هدی خیر العباد: ابن قیم الجوزیة، ط ۱۹۸۶، مؤسسة الرسالة، بیروت. ۲۵- تفسیر الفخر الرازی: ط ۱۹۸۵، دار الفکر، بیروت. ۲۶- حیاة محمد، محمد حسین هیکل، ط مصر. ۲۷- جواهر البحار: النهبانی، ط ۱۹۶۰، مصطفی البابی الحلبی مصر. ۲۸- خاتم النبیین محمد: سمیح عاطف الزین، ط ۱۹۸۶، دار الکتاب اللبنانی، بیروت. ۲۹- تفسیر روح المعانی: الآلوسی، ط ۱۹۸۷، دار الفکر، بیروت. ۳۰- مناهل العرفان فی علوم القرآن: محمد عبد العظیم الزرقانی، ط ۱، دار الکتب اللبنانی، بیروت. ۳۱- الأصول الفکریة للثقافة الإسلامیة: د. محمود الخالدی، ط ۱۹۸۴، دار الفکر للنشر و التوزیع، عمان. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۱۱

الفهرس

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – عليهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشّهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ الله – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ عليهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت – عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى. - من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَى ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان" ومُفترَق "وفائى"/بناية "القائميّة" تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة) رقم التسجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ

التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللّهُ تعالى؛ و اللّهُ ولىّ التوفيق.



مركز
القائمية
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹